الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور

أمل الفاران

مكتبة ١٣٣٦

قصص قصيرة

الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور

مكتبة | ١٣٣٦

الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور / قصص قصيرة
تأليف أمل الفاران

الطبعة الأولى 1440 / 2019
ردمك 978-603-03-0126-3
رقم الايداع 6433 / 1440

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

٢٠٢٣٩٧ مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور

قصص قصيرة

مكتبة ١٣٣٦

أمل الفاران

أثر

تسعة أسباب لفشل مشروع أم فهد

السبب الثاني: الأسر المنتجة - التي تعرفها - تتواصل مع عملائها عبر انستغرام وسناب شات، واشتراك أم فهد بباقة النت انتهى ولا تستطيع تجديده الآن.

السبب الثالث: أم فهد مضطرة «مؤقتا» للانتقال لبيت أختها أم خالد. بعد موت جدتها (آخر الخيوط التي تربطها ببيت المزرعة في طرف البلدة) ليس مقبولاً أن تعيش وحدها.

هذا الانتقال أجبر أم فهد أن تترك مواعينها؛ فلن يرحب بها مطبخ أم خالد، وفرنها- التعبان- لن يتحمل قدرين كبيرين في نفس الوقت.

السبب الرابع: أم فهد تركت الجامعة «بالضبط» قبل محاضرة «كيفية عمل دراسة جدوى لمشروع»

لن أبرر لكم هذا التوقيت العجيب فأنا الكاتبة ويحق لي صنع مفارقة واحدة على الأقل في أي نص.

وسأغامر أكثر وأقول إنها لو حضرت هذا الدرس ما نفعها؛ فالشابة لا تمتلك أي مهارات حسابية؛ كانت تفشل دائما في توزيع مكافأتها الدراسية على الجيوب والأفواه الخاوية لعائلة النخيل.

السبب الخامس: ماكينة الخياطة.

وسأشدد على أن الماكينة آخر طعنات معركة التعليم وأم فهد.

كي لا تبدو أقل من زميلاتها ظلت أم فهد تستعير ملابس الصديقات والجارات وعطورهن. تذهب متعطرة وتعود للبيت برائحة البصل والثوم. صبرت على ذلك صدقوني، وتحملت معه صعوبة الدروس وضعف النتائج، ثم أعلنت أستاذة التفصيل - دون سابق إنذار- أن الجزء النظري انتهى وسيليه التطبيق- وعلى كل واحدة منذ الغد أن تجلب ماكينة خياطة بمواصفات محددة»

السبب السادس: أم فهد كانت ستدرس التمريض لا التفصيل والطبخ، لكن أباها بعد تخرجها من الثانوية أصيب بناسور أقعده عن الذهاب بأوراقها للكلية في المدينة المجاورة.

كانت أيام التقديم تذوي وناسوره يتقيح. وكلما وجدت لطلبها منفذا بين أنات الوالد تكلمت، وكلما نطقت التفت من على عرش الوسائد وقال: ممرضة هاه؟! تعالي اشفي عصعصي لنتأكد من مهارتك قبل أن يتورط بك خلق الله.

مات الأب بعد سنة لسبب آخر، وماتت معه كلية التمريض.

السبب السابع: وفاة أمها قبل أن تتم أم فهد المرحلة المتوسطة. وجدت الصبية في معلمة الاقتصاد أمّاً أفضل (تثني عليها ولم يكن أحد يفعل في بيت ولا في مدرسة)

غدت الأستاذة بطلة أحلام يقظة اليتيمة: مرة تكون أمها ومرة أختها المسؤولة عن رعايتها، ومرات لا تربطها بها صلة رحم لكنها تقرر أن تتبناها.

ينتهي ذلك كله حين تنتقل المعلمة للرياض. ناحت أم فهد شهرًا، خططت طوال شهرين آخرين لهروب كبير يعيدها إلى جنة حاميتها ثم نسيت الأمر. لو لم تنس لفهمت - حين ضاع حلم التمريض - لمَ زجت بنفسها في

تخصص الاقتصاد.

السبب الثامن: حُسّاد أم فهد على المشروع. ما إن كشفوا سر نارها التي لا تنطفئ والسّواق الغريب المتردد على بيتها حتى خربّ عجينها، ولم يعد يتماسك مهما غيرت نوع الطحين وكمية الماء.

السبب التاسع: أم فهد لم تتزوج. فهد وأبوه اسمان صاغتهما عند بدء المشروع؛ فقد لاحظت أن لكل امرأة منتجة كنية فاضطرت لاختلاق هذه.

ربما لو لم تكبر على أحلام اليقظة لنسجت في ساعات سهادها - في مشتى أم خالد - تفاصيل أحداث متخيلة لحياتها مع فهد وأبيه، أو مع غيرهما.

بنت

أنا ميتة. الموت ليس فكرة سيئة في حالتي. لم يبك عليّ أحد؛ لأن أحدًا لم يعرفني. لم تفكر أمي في اسم لي لا مثيل له في محيط قطره ثلاثة أحياء سكنية (بالإضافة لأربعة بيوت في مدن بعيدة قد تعود منها شقيقاتها في زيارات خاطفة للبلدة)

لم تتخاصم مع أبي حول اسمي، فقد طلقها قبل خمسة عشر عاماً.

ولأني لم أولد أبدًا لم يؤذن جدي في أذني، ولم تقطع حبلي السري ممرضة، لم أخرج للنور، ولم أتكوّن مضغة في رحم أمي.

لم يضعني شقيقي - رضيعة - في حجره، ولم ترفرف أيادي أمي حوله حتى لا يوقعني. لم يُركبني خلفه في دراجته ذات العجلات الثلاث، ولم أتشبث خائفة بعموده الفقري، ولم يتمايل رأسه زهوًا وهو يستعرض قدرته على القيادة بحمولة إضافية أمام أمنا.

لن يبكي أحد، لكن قلب أمي يغوص في بركة داكنة أحياناً حين أظهر في أحد أحلامها: آتيها طفلة في أعمار مختلفة تتراوح بين السنة والأربع سنوات، وأستقر دائما على ساعدها: رأسي يُلامس عنقها، قلبي الصغير ينبض فوق صدرها، وكفي على لوح كتفها.

ظلت أمي تسأل العارفات عن معنى الحلم المتكرر. قبل أحد عشر عاماً قالت جارتها العجوز:

- «البنت في الحلم بنيان»فبذرت في رأس أمي فكرة. لم تحصل أمي على

بيت يخصها وحدها، لكنها تنقلت بين مساكن زرتها فيها جميعاً.

قبل تسعة أعوام قال شيخ لجدتي حين سألته تفسير الحلم: البنت خير ورزق.

فرحت جدتي التي لا أعرف رائحة جسدها ولم أذق مرةً الحلوى التي توزعها على الصغار، بشّرت أمي وتبادلتا ابتسامة متشككة قبل أن تلوكا معا: «الله يكتب الخير»

تحت رماد يأس جدتي استيقظ رجاؤها وقالت صادقة أو كاذبة: الشيخ قال « الرزق زوج وعيال» وقد عادت الخطابة تسأل..

نهضت أمي وركضت أنا في إثرها. لم نسمع بقية الكلام، وإن تسربت حوقلات الجدة من تحت باب حجرتنا.

قبل سبع سنوات ألمحت أمي لصديقاتها أنها قد تتبنى فتاة صغيرة وجننتني الغيرة. غضبت وصرت أزور مناماتها كل أسبوع مرتين، حتى ذوت الفكرة في لسانها.

قبل خمس سنوات سافرت أمي إلى بلد بعيد، ولم أصاحبها.

حين عادت زرتها وقد أنهكني الشوق. وجهي ممتقع مشعر، جسدي رخو مترهل، ودقات قلبي غير منتظمة.

أخافها منظري فكتمت تفاصيل حلمها تلك المرة، ورمت شبحي في صندوق الأوجاع غير المحكية.

اليوم أكمل ثلاثة أعوام مذ امتنعت عن زيارتها. لم يعد ذلك مجديا على كل حال وقد جف رحمها.

مهمة رسمية
مكتبة
t.me/soramnqraa

يطرق عيدٌ آخر أيام ظافر الخاوية فينبش ذاكرته الموسيقية الشحيحة. يتغنى بأبيات بخوّت «عيدوا بي في الخلا والفريق معيدين» ويدغم الشطر الخاص بالخضاب وهو يهرش بأظافره الصفراء صدغه. يشتعل حماسه فيطبّل براحة كفه على فخذه، مكتب رئيس الرقباء، حتى جدران السجن حتى باب دورات المياه. يختار المغلق منها ولا يتوقف عن التطبيل حتى يسمع من الداخل لعنتين على الأقل.

« شايب ما يرحم اللي غدا قلبه حزين

جعل ذوده في نحر قوم وهو يشوفها»

يهمس بالبيت بين رفاقه إذا مر ضابطهم المناوب، فإن انتبه الضابط انكمش ظافر في مقعده، وإن ابتعد قلّد مشيته. يتقن تقليدهم جميعا وترتفع ضحكات الجنود كلما زاد عدد نجوم وتيجان الضابط المقلّد. لم يجرب ولا مرة خفة دمه في حضور أي ضابط، هو من عسكر يؤمنون بأن اليوم الذي لا يخاطبهم فيه رؤساؤهم ولا يلحظون وجودهم يوم جيد.

فرت الرتابة من استراحة الجنود حين استدعاه كبيرهم.

- كم لك من أهلك؟

كان ظافر قد توقف عن إحصاء الأيام منذ العقوبة الأخيرة قبل أسبوع. يحتاج أصابع يديه ورجليه للحساب ولن تكفي.

لا يظن أن الضبّاط يظلمونه وهم يلحقون التوقيف بتوقيف، كان مؤمناً

أن نومة أهل الكهف مصيدته التي تنهش راتبه، وأيام إجازاته وتكاد تبلع الترقية أيضاً. رد بصوته الرسمي: الواجب أهم طال عمرك!

قال الكبير: أهلك في الوادي؟ ثم دون أن ينتظر الإجابة سلّم العريف ورقة مدموغة بتوقيعات وأختام: تأخذ التعبان هذا لمستشفى شهار وتقضي أربعة أيام عند أهلك وترجع لنا ثالث العيد بحول الله!

قلب ظافر تكليف تسليم السجين لمستشفى الصحة النفسية وهو يبلع ريقه. الضابط الذي لم يقرأ أفكار جنديه صرفه بهواجسه والورقة: الفجر تستلمه من الضابط المناوب.

لم ينم ظافر ليلته كي لا يفوته عيد الخماسين. مع نجمة الصبح كان يؤدي التحية ويستعد لاستلام سجينه.

ولأنه لم ير غير مجانين الأفلام، كانت صدمته كبيرة حين دخلوا برجل نحيل طويل هادئ ذي شارب مهذب.

لم يكن في الرزين الذي سلّم على الضابط وجنده ملمح جنون واحد، ولولا القيد في أطرافه لأقسم ظافر أنه لم يبت في السجن ليلة.

أركبه بجواره في الكراون فيكتوريا الفضية موديل ٩٠ .

الصمت المطبق في السيارة لم ينقطع حتى توقفا بعد ساعة للتزود بالوقود. طلب المجنون كأس شاي بالحليب: «وإذا عندهم بسكوت أولكر هات لي.. لا هنت»

مده العسكري بكأسه الورقي وبقي خارج السيارة متذرعاً برغبته في التدخين. ينفث ظافر الدخان ويثني على نباهته: «أنا مهبول أقعد جنبه وفي يده مشروب حار؟!» ماذا لو خطر له أن يصبه علي؟!

بعد سيجارتين وكأس شاي الحبق أعاد ظافر حساباته: لا أظن بعقله شيء.. لا بد أنه تورط بمصيبة لا خلاص من عواقبها واختار أهله الجنون حتى لا يسجن.. وكما استلوه من السجن في ليلة سيخرج من شهار في لحظات.. «واضح أنه ولد نعمة»

خلع بدلته العسكرية ولبس ثوبه البني المخطط بالأسود ثم ركب السيارة.

قطع المسافران الدرب الطويل بين الرياض والطائف في أحاديث حفرت قليلًا في سيرة السجين: نشأته في حرض، عمله في وزارة الزراعة، عشقه لجدة ولعلي عبد الكريم ولشارع فلسطين: «كل ما ضاق صدري لقيت علاجه هناك»

لم يقل شيئا عن سبب سجنه ولا عن تهمة الجنون. وليكون ظافر منصفاً سيعترف أنه استمتع بحديث رفيقه المنظم عن سيارات الفورد وتاريخ دخولها للسعودية وما قيل فيها من قصائد شعبية ماراً على عجل بقصائد المرية.

تحدث عن حرب ٦٢ في اليمن التي شارك فيها والده، وحين سمح له ظافر قلّب الأشرطة القليلة في السيارة واستأثر باختيار الأغاني التي سيستمعان لها تالي المشوار.

بعد ثلاث ساعات أدار الراكب وجهه للرمل المريض وسكت. كان توقيته سيئًا جدا للعريف الذي اندلق النوم من نافوخه على أجفانه. كأس القهوة الذي شربه في الوقفة الثانية للوقود لم يطرد حتى الغبار عن رموشه القليلة.

بعد أن راغت السيارة مرتين اقترح مهدي (السجين) أمراً: يا أخي لو أدري إن ميتتي ستكون في البر ما ركبت معك.. أما انزل في محطة وارقد و

«كل مطرود ملحوق» أو أسوق السيارة عنك حتى نصل.

وللتوثيق فإن المقيد لم يقنعه بل تكفلت بذلك الست وعشرين ساعة بلا نوم.

هبة الهواء وخطوته الأولى خارج السيارة أيقظت حواس السجان كلها، وللحظة كاد يتراجع، ثم انزوى كجنين في مقعد الراكب ووجهه للسائق.

تصميمه على مراقبة سجينه تبخر ويد مهدي تخفض صوت المسجل والسيارة تسبح في الدرب الذي لا ينتهي.

غيبوبة ظافر الكابوسية توجت بحلم السقوط فانتفض. تحسس ركبته التي تهشمت على القير. تلفت فوجد السيارة متوقفة عند بوابة مستشفى شهار. مسح لعابه عن خده وهو يسير بخطوات واسعة للمصحة.

قبل أن يتم سلامه على عسكر البوابة كان مهدي خلفه.

اجتاحته نوبة ضحك هستيرية وهو يرى المجنون مرتديا لبسه العسكري ويمد الواقفين بالورقة: جئت لتسليم هذا السجين وهذي أوراقه.

الضحك تحول إلى رعب حين قبض العسكر على ظافر. صرخ محاولاً تصحيح الخطأ، لكن شعره المنكوش، عيونه المحمرة، بقعة اللعاب الجافة على شدقه، وجمله المفككة لم تساعده كثيرا.

أسبوع العيد قضته أحياء في الوادي تبحث؛ لم يتركوا حصاة على أختها مفتشين عن ضائعهم.

مطلع الأسبوع الذي يليه انتدب الضابط جنديا زميلا لشهار بعد وصول رد غريب على استفساره. العسكري الذي قدم للتعرف على ظافر درس بجدية آثار الضرب والتقييد على بدن صاحبه وقال بحزم: رئيسنا أوصاني ألا

أخرجك إن لم تكن قد عقلت..« أظن الجماعة ما قصروا» ثم كركر طويلا.

خارج شهار سأله: تروح معي للرياض؟ ينتظرك جزاء طويل.. أو أطلب لك سيارة لتذهب للوادي؟

استأجر ظافر سيارة واتجه لجدة. كان عازما على أن يرابط في شارع فلسطين.

لم يصدق عينيه حين رأى بعد ساعة واحدة سيارته تمخر الشارع ومرفق مهدي يرتاح على نافذة السائق المفتوحة، وأزرار الزي العسكري تعكس نور الشمس.

كل ما تخيله عن اللقاء تلاشى حين نزل المجنون وسلّم عليه بحفاوة شاكراً إياه على السيارة وعلى زيارة جدة: كانت أمنية وتحققت.. بيض الله وجهك!

كان مهدي يخلع الزي العسكري والمسجل يصدح «أرسل سلامي مع نسيم الصباح.. للصاحب اللي صار وصله صعيب»

ملامح مهدي البشوشة أشرقت أكثر وهو ينبه الجندي: اشتريت لك أشرطة جديدة.. غيرت الزيت وعبأت الخزان بنزين.

غبار وردي

مجلس العزاء ينقصه شيء ما. الدموع موجودة (قد تسيّل واديًا جافاً لو احتسبنا دموع أمه التي تذرفها من سنة) الماء والمناديل الورقية: المناديل لمسح الدموع، والماء لتعويضها في الجسم.

حجرتان أثثتا على عجل بنساء وحزن، تنبعث منهما شهقات متوقعة ومفاجئة بين ثانية وأخرى، شهقات كتدريب متوتر وأخير لأفراد فرقة على وشك أن تعزف.

في مجلس الطرف الآخر من البيت، دموع الأب «مجرور» على ربابة يخشى المحيطون أن ينقطع وترها.

المساحات بين بُكائين يركض فيها أطفال بملابس ارتجلتها – مع خروج الأمهات الجماعي – خادمات أو شقيقات صغيرات. حضور الصغار النشط لا يقلق أحدا.

بجوار أم الفقيد قعدت أم فقيد سابق، هذا مكانها المعتاد في أي عزاء، وإلا فكيف سيتذكر الناس ألمها؟!

كل عزاء تكّوم لحمها الكثير وتزفر مع كل انحناءة لمعزّية تقبّل رأسها.

كالعادة مدت ساقها اليسرى وبدأت تنثر نتفاً من حكايات ميتها وكم صبرت.

فقيدها يموت على الألسن بين عزاء وآخر وتبعثه المصائب. يسمح لها الباحثون عن مواساة بأن تحكي وتبكي، ويتغاضون عن أي إضافات لسيرته

لم تذكرها في عزاء سابق.

على يسارهما امرأة مسنة وعصاها. بعد أن ملّ عيالها وأحفادها صُحبتها صارت ترتاد كل بيت مفتوح، والبيوت الباكية مضيافة؛ لا تتوقع استئذانا لدخول ولا تبريرات لمشاركة.

في كفها الذابل مسبحة بها ألف حبة، أصابعها تفرز الخرزات وسمعها يصنف عبارات المواساة.

سلطة العجوز على حزنها كبيرة، لكنها لم تجربها على أحزان الأخريات إلا في السنوات الأخيرة. حفظت من الردود ما يكفي لجعلها مؤهلة لتسيد المواقف، همّها ألا يتحول البكاء إلى نياحة، وألا تمرر كلمة فيها شبهة سخط (الله من يقبض الأحباب، وهو يفعل لأنه يحب من أخذهم أو يحب من تركهم ويريد اختبارهم بنزع من يحبون من أحضانهم)

مؤخراً تسامحت مع لوم الثكالى لداعش وتجاهل أنه قضاء الله، الحكومة والمشايخ يلومونها، وهؤلاء لا يمكن أن يتفقوا على باطل.

حين سمع أهل البلدة اسم داعش أول مرة لم يفهموه، ومن فهم ظنها فرقعة إعلامية.

قبل ثلاثة أعوام رُفع علم أسود في مسجد أحد الأحياء فتفشى اسم رافعه كملح مجروش فوق جرح. لم يكن اسماً في جريدة بين قائمة مطلوبين لا يعرفونهم؛ كان الولد ولدهم، ولعب مع عيالهم في الشارع، درّسه بعضهم في المدرسة، وخطب له أهله بعض بناتهم قبل أن يهرب. وعندما تبعه آخرون انهار وهم الثقة بين آباء كثر وعيالهم.

أمهات دواعش وجداتهم زرن أم الفقيد الجديد. حضورهن يذكر بغياب جثث العيال، فكل ما حصلت عليه البلدة أخبار غير مؤكدة في اتصالات

هاتفية قصيرة من هاربين آخرين.

غابت أشلاء العيال وخطاياهم، لا أحد يريد أن يفكر فيها اقترفوه هناك. تبتهل الباكيات أن يمحو الله زلاتهم، وأن يحاسبهم على نِيّاتهم لا على أفعالهم.

قبل سنة

مكتبة
t.me/soramnqraa

حجرتان أثثتا على عجل بنساء وفزع.

في الحديقة التي ستهمل لعام، عباءات ترفرف بقلق وهواتف محمولة لا تتوقف عن الرنين وردود هامسة: الخبر أكيد.

- قال إنه ذاهب للعمرة. هذا ما قاله لأهله.

- قبل ساعتين أرسل رسالة واتس وداعية وأغلق الجوال مرة أخرى.

دموع قليلة تُمسح قبل أن تلفظها المحاجر خشية أن تثبت أسوأ الظنون.

في المجلس اعتذارات الأب: عاهدني ألا يذهب.. أخفيت جوازه من أشهر.. والله إنه خير عيالي!

- لعلهم يقبضون عليه.

- سيعبر من تركيا لكن الأمن صار أفضل.. من أسبوع قبضوا على ثلاثة على الحدود.

غص البيت بالناس؛ البيوت المفجوعة لا تحتاج استئذاناً للدخول.

بين البكائين يحوم أطفال، حضورهم النشط تكبحه ألسن الكبار، تدمغه بلعناتٍ تبطئ حركتهم قليلاً ثم يستعيدون صخبهم المزعج للجميع.

لا أحد يريد أن يتحدث عن الدواعش (ليس بعد) الكل يعصر ذاكرته ليبحث عن أشخاص حقيقيين عادوا لأهلهم كالولد الذي عرضوا صورته في التلفزيون وأمه تستقبله وتحضنه.

لا يبكون مع الأم، الدموع ستؤجج هلعها وتؤكد تكهناتهم.. حتى أمهات الدواعش الذين شبعوا موتاً لم يبكين أمامها..

عجوز المسبحة ليست هنا، هي في مكة للعمرة، ولذلك فالقليل من السخط على الألسن لن يجد من يقمعه.

في مجلس الرجال سيجد بعض الأخوال والأعمام من يهنئهم: احمدوا ربكم أنه ذهب قبل أن يذبحكم! تعملون مع الحكومة في جيشها.. أنتم ألد أعداء الدواعش وأكبر غنائمهم.

كان صعباً أن يتخيل الأقارب الفتى الذي كان في قلوبهم وأحضانهم ينحرهم، غدت الصورة المقترحة أكثر قبحا ووجه الأب ينقل تضرعاته بينهم: «ما يسويّها.. والله ما يسوّيها»

لكن الخاطرة الفجة - بعد أن مضغطتها ألسن كثيرة - أنتنت في رؤوس العسكر.

مرة على رأس كل ساعة كان الضابط ذو المرتبة الأعلى يجد من يلح عليه بأن يشكر الله على النجاة من خطر لم يفطن له. بعد أن ترهقه مقاومة النبوءة الشيطانية سيكرر: الحمد لله على كل حال.

شحت دموعه، أنفاسه صارت أبطأ وسال عرق بارد على جبينه. كلما شحذ لسان جديد سكينا ووضعه في يد الشاب الهارب، وفي الشهور القادمة سيعتاد مباغتة الداعشي له في منامه.

في طرف المجلس يصطف رفاق الغائب، بعد أسابيع سيتداولون سراً

صورة بعثها لا يكادون يميزونه فيها: ستنبت لحية في خديه، وبندقية في يده، وسيتحلق حوله رفاق جدد مسخوا اسمه بكنية غريبة..

فتية سيجمعهم المجلس اليوم وبعد سنة، وبين التاريخين سيرفض آباء بعضهم استخراج جوازات لهم حتى لا تأكلهم داعش. أولاد آخرون سيقترض آباؤهم ليرتبوا لهم رحلات لأقصى الأرض لعلهم يتعلقون بدنيا الناس لا آخرة الأحزمة الناسفة.

خلال عام مات نعناع حديقة الأم، وشابت شعرات في مفرق الشقيقة، وستكون هذه خسائر جانبية لن يذكرها أحد.

سينسى الأهل أيضاً ضحية أخرى؛ الفتاة التي أخبرهم عنها في أحد اتصالاته الأخيرة، لم يرسل صورتها لهم، ولم يطلبوا منه ذلك، لا يعرفون اسمها، فكل ما قاله أنه تزوج سبيّة.

إعدام

«كل نفس ذائقة الموت» تلقنها البنات للباكية التي وصلها خبر وفاة قريبة لها. أنفها أحمر وجفونها منتفخة مبلولة، وتنشج بين مواسية والثانية. غمزت لي إحداهن مومئة برأسها ناحية الباكية فاقتربت مثلهن وقلت لها نفس الكلمات.

لم أعرف من القرآن قبل هذا المكان غير «قل هو الله أحد»، أكررها في صلواتي العجلى، وأحيانا أنتبه أنني خلطتها بالتحيات فأسجد سجدتَي سهو ثم أرتد لعملي.

في زيارة قديمة حكى لي أخي حكاية عن الصلوات القصيرة والقرآن القليل: اليوم صليت الظهر بمسجد صغير في بلدة على الطريق، دخلت المبنى الصغير على جانب الخط فصليت ركعتين تحية للمسجد، وقعدت أنتظر الإقامة. دخل رجل أعمى يقوده ابنه، حين حاذاني تشمم الفضاء بمنقار طويل حاد ثم أكمل دربه. دخل شابان آخران فالتفت يتسمع خطواتهما ربما، ثم لم تصدر عنه حركة، وقف الإمام في المحراب واصطففنا وراءه. أمال رأسه جهة ولده وغمغم: معنا أحد؟ وتمتم الولد: لا يخلو الأمر.

قال أخي: بعد الصلاة قبضت على ساعده أسأله عما لغط به وأبوه: أنا المعني ومن حقي أن أعرف.

الولد أخبر أخي أن العمى المتمهل سرق من أبيه حياته فلم يبق من مهامه الأولى غير إمامة المسجد، وهو لا يحفظ غير المعوذات، لكنه يسمع الصلوات في التلفزيون فيتعلم سوراً يخبئها ككنوز ثمينة لا يقرؤها إلا إن صلى معهم

غريب.

أخي يضحك من حكايته، وأنا - من وراء الشبك - أنقل ثقل جسمي من ساق لأخرى.

يصف أخي رجلاً وينبت لي جِرْم رجل آخر. دق قلبي بعنف حين اكتملت صورة مسن مجدور، تذكرت الشعر الشائب في منخاريه الكبيرين ورائحة الجيفة التي تنبعث من فمه. شعرت بمغص في بطني فنفضت الصورة من دماغي وسألت أخي: ماذا قرأ لكم الأعمى؟

هرش شعر عارضه الخفيف بأظافره، ثم قال: أظنه قرأ الضحى؟

في زيارة أقدم، سرد لي حكاية أحد أعمامي في حلقة البلدة، حين كان صبيا ظل المطوع يجلده حتى قال لأهله بأنه يفضل النخيل على «القراية»

شرح لي أن جدي كان يعرف أن هذا العم فرصة الأسرة الأخيرة في «فك الخط» وستفقدها. انتظر نهارين آخرين قبل أن يمر إلى الحلقة (قال أخي: ليبدو مروره مصادفة) لبد وراء جدار حتى سمع صوت ابنه يتلجلج والمطوع يحثه وينهره.

أقبل على الحلقة مسلماً، ثم انتحى بالمطوع:لا تضرب الولد لأجل هاتين الكلمتين ـ جزاك الله خيراً ـ وأعطه غيرهما.

أصر المطوع أن يحفظ الولد الآيات قبل أن ينتقل لغيرها، وأغاظ جدي بالإشارة للعيال الذين وعوها.

- هداك الله. ذي كلمتان ليست لنا؛ نحن عائلة لم تجمع مالا ولن تعدده فلا تُشقه بهما.

قال أخي: هرب هذا العم من الديرة كلها بعد عامين، ورسائله التي كان

يبعثها كانت تظل أسابيع حتى يتبرع أحد في سوق القرية لقراءتها.

سكت لحظات خافضاً هامته، ثم فرك يديه واستطرد: لكن المال المطوي فيها كان يصرف في ساعته.

أحفظ حكايات أخي، وبين الزيارة والزيارة أعيدها لجدران الغرفة وحنفية الحمام وبطانيتي المقلمة. هذا العم - الذي لا أتذكره- ربما يشبه أبي قليلاً.. لكنه في الغربة اختلف، يشتاق لأهله وللهجتهم ولرائحة طعامهم، ويبكي منفرداً عندما يصمت بحكايات كثيرة يخشى ألا يفهمها من حوله.

هل بدلّ المطوع له الآيات بـ «كل نفس ذائقة الموت»؟

القرآن والموت لم يزورا البلدة كثيراً يوم كنت فيها، ورفيقتي قالت إن الله أخرج آدم من الجنة لأنه حاول ألا يموت. قالت: غشه الشيطان بالشجرة، ضمنت له الخلود بطريقة أخرى؛ أرته عورته وعورة امرأته ليتناسلا ويملآ الدنيا بالقرف. نفثت القرف في أذني، كانت تقبض على يدي بيد محمومة وتوصيني: لا تسمحي لهن بأن يأخذنني لمستشفى السجن.

قالت الكثير وهي تهذي، أما حديث الموت فأكملته بعد أن خفت حرارتها.

- لم يخبرنا القرآن كيف مات آدم، لكنه جعلنا نرى ولده يقتل الولد الآخر.

كركرت: أول حدث نعرفه عن البشر على الأرض كان جريمة قتل؛ خشي الإنسان على قدره وهو بين يدي خالقه فعصاه لعله يُخلّد (وقطبت حاجبها) ثم عاد يطلب رضا ربه بقتل أخيه، ومازال إلى اليوم يتقرب إلى الله ويبطش بإخوانه.

كانت الوحيدة التي تتحدث كثيراً عن الموت والقتل أمامي؛ تنفرد بي

لتقول كل ما لا تنطق به أمام الباقيات. لم تدخل السجن لأنها قتلت أحداً لكنها أقسمت مرة أنها لو خرجت فستقتل اثنين بلا تردد.

جاءت وأنا لا أعرف من القرآن أكثر مما حفظ عمي على يد المطوع، وأقل مما يعرف الإمام الأعمى في مسجد القرية التي لن أزورها.. لكن الأيام والليالي هنا تعلّم الحمار.

قبل السجن كنت حمارة أهلي، ولا أجيد قراءة ولا كتابة. لم أزر مدرسة الديرة لكني دخلت فصول تعليم الكبيرات فيها وأنا صغيرة حين أمرتني زوجة أبي عصر يوم بأن أحمل أخي وألحقها، ورحنا للمبنى الوحيد المليس بالجبس، هي تدرس وأنا تحت طاولتها أهدهد الصغير.

احمر وجه أمي ونحن ذاهبتان، ورجعنا وقد ترمّد، لم تكلمني يومين، ولم تأمرني بأن أعصي العمة، ثالث يوم قالت لخالتي إن الملعونة تذهب لتهرب من العمل في النخل، وبنتي (وثقّبْت بسبابتها ظلي) تتبعها كأنها عبدتها. خالتي قالت إن الطماعة (عمتي) تتعلم لأنهم قالوا إنهم يعطون من تنهي الدراسة ألف ريال.

لعنت أمي وخالتي العمة ولم تذهبا مثلها وظلتا تسألاني كل يوم متى تنوي أن تترك المدرسة؟

تنبتر أسئلتهن إن دخل أبي. تسلم عليه خالتي وتهرب لبيتها، وتصمت أمي، ربما ماتت بصمتها، وأنا لا أنطق أمامه حتى حين يزور أحلامي هنا.

في الفصل كنت أقرفص بالرضيع تحت ذيل ثوب الملعونة، فإن بكى رفعته لها لتلقمه صدرها قبل أن تطردني المعلمة وإياه من الفصل.

الكلمات والحروف كانت تتدحرج من السبورة قبل أن تصل عمتي، تلتصق كاللبان بقوائم الطاولة. كنت تحتها أقشر حوافها الصدئة بظفري،

وأنقب اللبان الطري من بطنها وآكله هو وبعض الحروف والكلمات. القليل من الحساب عرفته أيضاً، لكن المرة الوحيدة التي أجبت فيها ومدحتني المعلمة هرست عمتي فخذي بقدمها.

قبل السجن لم أعرف مكانا آخر غير بلدتي، وهنا عرفت أن لا أحد سمع باسمها من قبل، حتى في التلفزيون لا ذكر لها. قبل سنوات أرتني إحدى السجانات موقع بلدتي على الخريطة وانتبهت أن أصابع مذيع نشرة الأحوال الجوية تحوم حول البلدة ولا تلمسها، كمن يتحسس دملا ويتحاشى فقأه.

معرفة الصحف بالبلدة أفضل، أحياناً يكون فيها إعلانات منها: بطاقة أحوال مفقودة، مناقصة بناء مستوصف، حالة إخلاء طبي. في نهار جمعة قريب سينفذ حكم القصاص، ستكتب الصحف الخبر، وسيذاع في نشرة أخبار التاسعة في التلفزيون، سيتلو رجل آيات وسيذكر أرقام طويلة ثم سينطق اسمي، سيقول إنه تم القبض على الجانية قبل خمسة عشر عاماً.

سيقول «غدرا وغيلة» أحفظ الغدر والغيلة، و«صُدِّق الحكم» و«نُفذ الحكم قصاصاً» أي بالسيف.

لم تعد سيوف البلدة تقطع الأعناق، السيوف ترفع في الأعراس فقط، أما النساء فيمتن في مخاضات تتعسر، أو صريعات أمراض تمص لحمهن ببطء. لا أذكر أن امرأة ماتت فجأة، وكثيراً ما رأيت امرأة تحمل في بطانية، وينصب في طرف النخيل سريرٌ من أثل وسعف لتترك عليه تصارع موتاً يغلبها.

أكثر وصية في السجن تتداولها السجينات: «احفظي أجزاء من القرآن ليخففوا مدة محكوميتك وقد يشملك العفو في رمضان» يتواصين بها ويتحاشين صبها في أذني.

الآن بلغ آخر الصغار الرشد وتبع إخوانه رافضا العفو عني. صدر الحكم

وتم تصديقه من قبل هيئة التمييز، بلغوني وانفضوا من حولي. بعد أيام مررت بالمجموعة التي تحفظ القرآن ومدتني المدرسّة بالمصحف، تربعتُ مثلهن وقلّبت صفحاته. ومرت بنا تلك التي تنام في السرير الذي يعلو سريري وغمزتني لأتبعها. في مكان التشميس ضغطت على يدي: إن أردت دراسته علمتك، أما حفظه فبم ينفعك؟!

دنت منا سجينة أخرى وفردت يديها على كتفينا وصاحبتي تنفض ساعدي: غالباً سيُحكم عليك بالقتل فكيف سيخففون عنك؟

بعد أن شبعت ضحكاً وجهت كلامها لصاحبتي: إذا حفظته كله فقد لا يذبحونها.. ربما يقطعون يديها ورجليها ثم يتركونها.

الأولى شحب وجهها وسحبت نفسها للغرفة وأنا سألت التي قاطعتنا: وكيف أخرج بأطراف مبتورة؟!

ـ أرأيت؟!

لم أر شيئاً وظللت بجوارها حتى انتهت فسحتهن في الشمس، ثم عدت لمرقدي أنا أيضاً.

في أول إقامتي كنت كلما أعادوني من التحقيق أو من عند الشيخ ألزم فراشي، ولم تعرف الجدران من حكايتي غير نتف قالتها السجانات. الشيخ الأول ترك الأوراق أمامه وصار يسألني عن حياتي، آخر مرة رأيته تهدج صوته وهو يحوقل ويقول للعسكر: ذي «حمار في منحاة» تشتغل في بيت رجلها ثم تروح لبيت أهلها تخدمهم ثم ترجع لبيته وعياله وإبله ولا «جزاءً ولا شكورًا» أحد يضربها وأحد يلعنها.

كان وجهه ألين من وجه الأخن الذي صرت أراه بعده، السجانة التي كانت تذهب معي عصرت زندي في السيارة وقالت: سيذبحونك.. انطقي..

قولي أي شيء، إن لم يكن لديك ما تقولينه اكذبي، قولي يضربني حتى أشرف على الموت، قولي عياله اغتصبوني.. ابكي يا بقرة.. هم يحسبون صمتك قوة، والشيوخ يكرهون المرأة القوية.

لم أعرف - إلا منها - أن البكاء مسموح، بكيت في السيارة، وطوال الجلسة، ولم أعِ مما قاله الشيخ أو العسكر كلمة، أعادوني وأنا أبكي.

في غرفة مديرتنا سحبوا طرحتي ومعها مزيج دموعي ومخاطي. أجبروني أن أغسل وجهي ومسحوه لي، ثم عدت أبكي في العنبر وفي فراشي.

جاءت ممرضة مصرية ودون كلمة رفعت ثوبي وحقنتني بإبرة، بعدها بلحظات بدأ البكاء يتقطع، وصار رأسي أثقل من أن تبقيه رقبتي مستقيماً، السقف يدنو وأنفاسي تتباطأ، حلمت بخلق كثير، استيقظت في العتمة لأبكي فلم أستطع ثم عدت للنوم.

مذ بصمت على كل شيء ولم يعودوا يأخذونني خارج السجن، صرت أنام أكثر. بعد سنة كنت قد سمعت قصص كل من في العنبر بروايات مختلفة وحكايات السجانات أيضا، بعد ثلاث انعزلت وتورمت، آكل كل ما يعطونني وما يبقى بعد أن تنهض الأخريات، كنت الحمار الذي نزعوه من مداره، أدور في الحجرة وتعيقني الأسرة والزوايا.

السجينة التي أخذتني من جلسة الحفظ قررت أن تعلمني القراءة. كانت قد عادت من الانفرادي بعد أن تشادت مع سجّانة، بدأت تعلمني كل يوم، تمر بنا البنات ويضحكن، قالت إحداهن حين سمعتني أجمع وأطرح: أعوذ بالله من علم لا ينفع، تحسبن تجارتكن خارج السجن أو ذنوبكن؟!

تمر السجانات فيقفن على رؤوسنا لحظات ثم يذهبن.

الشامية التي انضمت لعنبرنا مخلوقة من طينة أرض أخرى، لونها ولهجتها

وصوتها، تقلد البنات كل حركاتها، ولم تتقن إحداهن ضحكتها.

كلما قعدت معنا توقف الدرس وتطردها صاحبتي: هي لا تريد أن تتعلم، وأنا أعرف من بعثها لتتجسس علي.

الشامية ابنة العشرين تبدو طفلة وهي تأكل، أو تلعب، لكنها حين تتحدث في شؤون قلبها لا تجاريها القوادات وفتياتهن.

القوادة التي تتصدر مجلس عنبرنا جاءت منقولة من الشمال، نسوها سنوات ثم بدأوا يأخذونها للمحكمة. قبل أيام حكموا عليها، وسمعتها تقسم ألا تسمح بأن يجلدوها الألف جلدة المقررة. سيكونون قد غيبوني تحت الأرض قبل أن يحمرّ قفاها ولا تقدر على التربع بيننا.

جيء بي للسجن بعد حادثة هرب الحبشيات بشهرين، كانت السجينات يقلن لي إن كل ما أراه جديد وزائل؛ السجانات اللاتي يسرن قابضات على عصي غليظة، أصواتهن الجشة وكلماتهن القليلة، رائحة عرقهن التي تفوح بسرعة إن اقتربت منهن مسجونة.

قالت سجينة قديمة: أيام ويعدن لعاداتهن.

بعد أسبوع خفت الأقفال على العنابر، وقلت جولات السجانات، وخلال أسبوعين غابت بعض العصي، ولانت وجوه بعضهن. بعد شهرين خمدت ذكرى الحادثة. في بلدتي كان لي قبل أن أتزوج عادة واحدة، حياتي نهار واحد ينقضي ليبدأ من جديد. أزداد فيه إتقانا للمطلوب مني وتتضاعف مهامي.

كنت إذا لم أشغّل ماكينة الماء من محاولة واحدة يصرخ أبي: لا تخرّبيها يا بهيمة. أخبرت جارتنا التي امتدحتني مرة أن أبي يقول إني بهيمة، قالت: بهيمة حسنة التدريب.. ليتني آخذك بنتاً لي.. «لا كلمة ولا عَلْمة ولا تشبع

الأرض من قعدتك»

كان لها سبعة أولاد وليس لها بنات، وكان زوجها غائبا دائما. كان عليها أن تعمل ما أقوم به في بيتنا: قبل أن تزول نجمة الصبح أكون قد عدّلت مجرى الماء بين النخيل حسب جدول ريها الأسبوعي، وأراها تسقي نخيلهم، أرصف الحطب في وجار مجلسنا وأشعل بعضه ثم أرى خيط دخان وجارها، وكنت أنهي عملي قبلها.

مع أذان الفجر أشغّل الماكينة ثم أحلب النياق حتى أتأكد أن الرجال قد صلوا. أصلي ثم أكمل حلب البقر والماعز، أجهز القهوة وأغطي حليب البقر ليختمر، ثم أخرج حليب الأمس لأمخضه. ألصق العجين في التنور، فإذا شممت رائحة نضجه أخرجته لأضعه أمامهم، ثم أعود لآخذ رأس رغيف بين أسناني وأجري لأغير مجرى الماء.

الأخطاء التي أرتكبها تكلفني قرصات يحمر منها جلدي ويخضرّ ثم يزرق على مهل لأيام عديدة تالية.

بعد أن ارتديت المقنعة وزوجوني استبدلت أمي الكثير من القرصات بالنعوت التي تطلقها علي: الدابة السليمة.. البقرة.. لا نفع ولا شفع.

رفيقة السجن شرحت الشفع، ثم ضحكت: تموتين فيكافئ الله أمك.

هي معلمة دين وتسمي نفسها الكافرة، قالت لي إنه سر بيننا، ولم أخبر به أحداً حتى بعد أن راحت.

وكانت الداعية التي تلقي علينا دروساً تنفرد بها بعد كل درس. رجعت مرة من هذا الحديث الخاص ووجهها أزرق وأزيز صدرها أعلى: بنت الحرام لا تعظني، هي تتهمني في قلب نصائحها، ولو نطقت بحرف سأجلب لنفسي مصيبة أخرى.

كل مرة تزورنا داعية تضيق أنفاس الكافرة، ولا تتعشى معنا، وتغضب حتى مني دون أن أقول شيئا.

عادت بعد جلسة وهي تبكي، أخذتني لمكان التشميس وطلبت مني ألا أتحرك، ثبتت وجهي براحتيها وحدقت في عيني، وقالت: أريد أن أرى وجهي مرة أخيرة، لم أرَ وجهي منذ دخلت السجن، لماذا يمنعون المرايا؟

كانت تبحلق فيّ حين غرقت عينها بمائها وعادت للعنبر، صعدت لسريرها وظلت فيه حتى الليل.

قعدت في فراشي ورجليها متدليتين من السرير العلوي بلا حركة، دغدغت باطن قدمها ولم تتحرك، غلبني النوم وفي الصباح لم تنهض، كانت مقنعتي بيدها وهي منكفئة على وجهها. لمستها فوجدتها باردة. ناديتها باسمها فلم ترد، اقتربت الشامية وصرخت: استدعي السجانات بسرعة.

أردت مقنعتي لأذهب لهن، اقتربت القوادة والشامية تنتفض وتنتحب. دفعتني: أما سمعت؟! نادي سجّانة!

سرت خطوتين ثم وقفت في الممر. عنقي عارية، وهواء التكييف يصفر عند أذنيّ. أرخيت ضفائري عليها فلم تغطها تماماً. عدت لها: مقنعتي..

نحتني بظهر يدها وركضت لباب العنبر. في لحظات اكتظ الممر والعنبر، حملت السجانات رفيقتي وقد غطينها ببطانية. يبتعدن وطرف مقنعتي يتدلى بين أرجلهن كأنه رشاء.

بكت البنات وبكيت. ذاك الأسبوع جاءت كبيرة السجانات وقَعَدت بيننا، قالت: السجن صعب لكنه فرصة للمرأة لتفكر فيما ارتكبته من أخطاء وتتوب فيغفر الله ذنوبها وترجع للحياة امرأة مختلفة.

سألتنا إن كنا نريد شيئاً أو نحتاج شيئاً، انتظرت البنات ليتحدثن كي

أطلب مقنعتي. كانت رؤوسهن بين أرجلهن ويخططن بأصابعهن الأرض وبعضهن شددن ذيول أثوابهن على أصابعهن ثم غطين براحاتهن أفواههن وسكتن. فيما كانت العسكرية تكلمنا كانت سجانات أخريات يركبن غلاية جديدة في المطبخ، ويعلمن صومالية كيف تشغلها، ثم فتحت السجانة الكبيرة كيسا معها وأخرجت علباً وأكياسا صغيرة ملونة. من المطبخ جاء شاي الغلاية الجديدة، نشربه بينما توزع السجانات أكياسا بها قطع بسكويت مكسرات، ومعها عبوات ملونة.

قبلت السجينات العطايا ولم يفتحنها. الشامية انقضت على إحدى العلب وفتحها وهي ترفعها أمام أعين البقية، أدنتها من أنفها، شمت رائحتها وهي مغمضة العينين، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة، غرفت بأصابعها من قلبها شيئا كالودك، دهنت به وجهها ويديها. التفتت لي ووضعت منه على وجهي وعنقي، ثم ضحكت وهي قابضة على كفوفي وتلتفت في الباقيات: أحلف بالله إن يدها لم تدهن بكريم عمرها كله.

كانت كبيرة السجانات تنهض ولم يطلب منها أحد شيئا، تبعتها السجانات وجف حلقي وصار قلبي يخبط ضلوعي بقوة حين فتحت فمي: أنا أريد.. أريد..

التفت لي الجميع فزادت الحرارة في صدغي والرعشة في أصابعي التي تلمع بالدهن، قالت القوادة: تريد طرحتها التي راحت مع المرحومة... هههههه.. تريد أن تموت مستورة.

لم يضحك أحد، وأنا قلت: لا.. مقنعتي كنت أريدها قبل يومين لأني سأحتاجها إذا جاء أخي للزيارة.

أم خليل سحبت طرحة كانت تتعصب بها على رأسها ومدتني بها، قلّبتها

بيدي وأنا أسمع إحدى البنات تهمس: أخوها لم يزرها من سنوات.

نظرت للسجانات وهن يدرن ظهورهن خارجات: ما كنت سأطلب المقنعة.. أريد مرآة.. أريد أن أرى وجهي.

راحت السجانات وأغلقن باب العنبر، انقسمت السجينات بين الحجرة وساحة التشميس، وبقيت أنا وأكواب الشاي المصفوفة الباردة.

الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور

صباح يومٍ خريفي ودعنا إنديانابوليس متجهاتٍ لناشفيل.

خمس سيدات في سيارة، أنا على الباب الأيمن خلف ريتشل. باتريشيا تقود السيارة.

أشجار الطريق تتخاطف الألوان الدافئة، تضخها بإصرار في تيجانها. تدّعي صحةً سيعصف بها الشتاء القادم.

حاولت أخذ صورٍ للمزارع الفارة من الدرب، من أشباحه تقنص عدستي جداول وخيول لتحنطها. يرتطم رأسي بظهر المقعد أمامي بين لقطة وأخرى؛ فباتريشيا تستخدم المكابح بدل علامات الترقيم في كل جملة تتفوه بها.

بعناية أنتقي لقطات أبعثها لنصف الكرة الأرضية البعيد. قد تقنع أهلي بأني في الجنة.

قبل شهر جاءني رد الناشر الثالث يرفض رواية ظللت أنحتها ست سنوات. بعد أن تورمت أجفاني فكرت بحرق الورق ومسح أي أثر له في حاسوبي، وكي لا أُعدم عشرين شخصية جززت شعري، الخفة الطارئة يومها جعلتني أطفو قليلا فوق بركتي الكثيفة

تجاهلت ألم كتفي وعدت أكتب، في أسبوعين أنهيت تسع قصص قصيرة مصير أبطالها موت محقق، يفاجئني في قصة ويتنبأ به البطل في أخرى ويصارعه ثالث منذ الفاصلة الأولى، لكن أحدا لا ينجو.

بعد درس الزومبا عرضت كارين هذه الرحلة عليّ، وأنا أبدل حذائي انحنت بجسد عائد من معركة سرطان لم أجرؤ على سؤالها أي جزء من جسدها قضم. هربا من شعري الذي لا يمكن تصفيفه وافقت.

في السيارة توقعت أن تبدأ سنثيا بإفشاء أخفى أسرار معارفها، لكنها حكت عن جارتها التي نقلت الشرطة أمس جثتها المتفسخة: اشتكى عدد منّا من الرائحة فطلبنا التدخل.

تحاورت السيدات حول متوفاة اتضح أن لا أحد في المحيط يعرفها.

- لم تكن اجتماعية.

- لا أذكر أني رأيت أحداً يزورها.

- لم أرها أكثر من مرتين خلال ثلاثة أعوام.

- ربما تكونين لمحتها وهي تأخذ بريدها. هي لا تخرج لغيره، وليس لديها كلب تنزهه.

انسحبتُ من نقاشهن أقلّب جسدا هلاميا نتناً لعجوز قوقازية منبوذة وتقتلني الرائحة.

سألتني باتريشيا عن طقوسنا في التعامل مع الموت. كان منطقيا أن يأتي السؤال منها وهي المبشّرة التي جالت بلادا بعدد شعر رأسها.

بلغة متقشفة أخبرتهن كيف نغسل الميت، ونجلل جرمه بالبياض ونطيبه، نعيده لرحم الأرض التي جاءت منها مضغة البشرية الأولى.

كارين - التي لا تقل عن باتريشيا تعصبا للمخلّص كرهت التطرق لطقوس دين آخر - بترت كلامي لتحسب تكلفة حرق الجثة مقارنة بخسائر تخزينها بانتظار قريب يدفع ثمن إقامتها الباردة ويقرر مصيرها!

حكايات الموت تتدفق على الألسن فتذكرني بحلم قديم، تحت لحافي أحسست بالجثة اليابسة غامقة اللون التي تشاركني الفراش. قالت معالجتي حين حكيت لها كابوسي: هل فكرت في الانتحار يوماً؟

بضحكة مجلجلة بترت ريتشل حبل خواطري ورتل الجثث التي تكدسها ألسن النسوة حكاية بعد أخرى في السيارة: سيداتي! حان الوقت لإغلاق كتاب البؤس هذا فهي رحلة الغرض منها أن نستمتع، أتتذكرن؟! ثم أننا وصلنا.. أرى مصنع الشوكلاته الذي حدثتكن عنه هناك.

هبطت قبل الجميع تتولى محاسبة عامل المواقف فيما باتريشيا تركن السيارة. من موقعها رأيتها تلف وشاحا مشجرا حول عنقها تتجه شرقاً. سنثيا بأظافرها الطويلة هرشت مؤخرة رأسها وتبعتها.

انشطر الفريق وكارين تقود باتريشيا لمحل أنتيك في الاتجاه المعاكس.

تاهت خطوتي بين وقع خطوات ريتشل العجلى، وصوت كارين الممتعض: قد يغلق باكرا ويضيع مشواري سدى.

في الزقاق الضيق بين المحل وجنب مقهى صغير رأيت مسناً يتكوم على مقعد خشبي، يحشر شحمه في قميص سماوي ويمنع اندلاق أحشائه بحزام عريض.

كان يلهث في الظل وشاربه الرمادي يغطي شفته العليا ونصف السفلى. نظرته تطفو بين عتبة المحل وقلبه الداكن، حتى باتريشيا المصابة بفرط حركة لم تفلح في خدش شروده.

تبعتها وهي تتقافز بين قطعة وأخرى ولم أشغل نفسي بفهم جملها المندهشة المبتورة.

كارين بخبرة حقيقية أو مدعاة تخطت باشمئزاز كثيرا من القطع لتتصنم

أمام خاتم تفحصه بتمهل.

فوق باب المحل رُصّت خمس لوحات زيتية صغيرة الحجم لبيوت وأشجار ومرجيحة أطفال.

نيابة عن كارين أخرجت رأسي من الباب أبحث عن صاحب المحل، تحديقي في الرجل لم يترك له خيارا، ضرب براحتيه فخذيه وزفر ثم نهض ليدخل.

حيانا وأرضية المحل تئن تحت خطواته الثقيلة، أخفى ثلثي كتلته وراء الطاولة وعادت المرأتان تفحصان المقتنيات.

لاحظ أني لازلت أنظر إليه فأشار للوحات الخمس: رسمتها أمي.. كانت تحلم بمستقبل في الفن، ثم (أفرج عن شبه ابتسامة) تزوجت أبي..

على يمين طاولة العرض صورة هولوغرامية لوجه رجل أربعيني مكتنز. دنوت منها فانتبهت باتريشيا للشبه بينه وبين الصورة: أهذا أنت؟

هز رأسه موزعا نظراته بيني وبينها: أجل.. تلك صورتي.

ردت نظارتها عن أرنبة أنفها: أهي قديمة؟ تبدو فيها أصغر!

صعقني رده: أبدو أصغر؟ كنت أصغر يوم أمس!

هتفت باتريشيا محرجة: dear lord . ثم انسحبت من المحل.

قلّب الرجل راحتيه ليعتذر لظلالها ولي: إنني مرهق قليلا، فقد عدت للتو من جنازة صديق.

لحظتها فهمت من أين له هذا الوعي الحاد بالزمن، فالموت يقبض روحاً ويهب الناجين نفحة فلسفة لأيام معدودة.

نفد صبر كارين، وسألته – وهي تنقر بسبابتها الزجاج – عن قطعتها.

اجتاحتني لحظة المساومة خطفة الحنين؛ تلك التي تسلخني فجأة عن المحيط فتسلبني اللغة وتجعل أنفاسي ثقيلة. خرجت من المحل فلمحت ريتشل عند باب قريب. أنضج الجهد وجهها فبدت لطخة الآيس كريم البيضاء في حمرته أوضح.

خافضة رأسي اندسست في موج المارة فلمحت دراجة طفل صغير طليت على عجل بالأبيض. كان مقودها منبعجاً ربما بسبب حادث، وكانت عجلتها الأمامية مثبتة بسلسلة في السور. وعلى عجلتها الخلفية أُسندت دمية على شكل أرنب مدقوق العنق ويعلوه السخام.

على مقعد الراكب لوحة خشبية صغيرة: لأجل المرحوم لوكاس.. ارتد الخوذة كلما خرجت للشارع.

مأزق وِجْنَة الانتخابي

أخذها السائق للمدرسة الثانوية في الحي المجاور، عند بابها وقفت قابضة على بطاقة هويتها وأوراق أعطاها إياها زوجها، كان اسم المرشح الذي ستنتخبه الخمسينية محسوماً، وقد أجرى لها أكبر أولادها اختبارات غير ضرورية لتضع يدها على رسم اسم عمه في قوائم غيّرها أكثر من مرة حتى لا ترتكب أي خطأ.

ساحة المدرسة تكتلات نسائية تنبعث منها طاقات ملتهبة، من أقرب المجموعات انفلتت امرأة سمينة وقصدَتها، خطوات المقبلة تطحن الحصى وتكشف طرف تنورة سوداء بحافة مغبرة. دنت الغريبة منها، كلماتها المهموسة تفرقع وسطها بعض الأصوات لتؤكد عدم اعتياد صاحبتها النبرة المنخفضة: نحن نساء ويجب أن ندعم بعضنا.. انتخبي الأستاذة هدى.. معلمة ومتحدثة جيدة وستطالب لنا بأمور لن يحرص الرجال على تحقيقها.. نصرها بإذن الله انتصار لنا كلنا.

إشارتها للمرشحة المعلمة ذكرتها بسخرية ابنتها من مجتمع المعلمات: «لهن سمات تعرفينها من أحذيتهن عريضة المقدمة وحقائبهن الكبيرة، مع أصواتهن المتيقنة من كل كلمة يتفوهن بها»

تذكرت سخرية زوجها من مُرشحة وعدت بتقليل نسبة التلوث في البلد، وأخرى تعهدت ببناء قصور أفراح في كل حي. وانتابها القلق من أن يسألها أحد عن برنامج شقيق زوجها.

انتزعتها شابة قبضت على ساعد الخمسينية، تعانقها ضاغطة ضلوعها

بقوة: هلا وغلا بأم فالح.. هلا بأغلى بنات أخوالي! (ثم تناجيها) والله إنك عند الظن فيك دائماً يا وِجْنة.. لم أنس الاتصال بك، كنت متأكدة أنك لا تحتاجين تذكيراً بدعمنا.

وِجْنَة التي جهزها الزوج والعيال للانتخاب ظلت تحوم في السور كعنز في مخاض. قريبتها بعد دقيقتين قنعت منها بغمغمة أقرب لوعد، وجرت تستقبل فوجا جديداً تقنص منه معارفها.

تنبش وِجْنَة حقيبتها باحثة في جوالها. بعد ثلاث رنات تهمس لابنتها: ولد عمتي أيضا رشح نفسه للانتخابات، أكنت تعرفين ذلك؟! أخته هنا وتحسبني جئت لأصوّت له.

جلجلت ضحكة ممتدة من حنجرة البنت في بيتهم حتى المدرسة، تلقتها الأم بتنهيدة ثم رجتها: عجلي.. كيف أتصرف؟

كانت أم فالح قد تجنبت الاتصال بزوجها لتسلم من تقريعه، وعليها الآن أن تستقبل موعظة طويلة من ابنتها التي لم تنجح ضغوط الأب والأشقاء في جعلها تشارك. بدل الموعظة حكت البنت لأمها حكاية: «في ذاك الزمان كان للخليفة وزير يبغضه، وأراد أن يتخلص منه دون أن تتناقل المملكة خبر ظلمه رجلا أخلص له.

استتمت حيلة نسجها الخليفة ومستشاره فبعثا – في حلكة الليل – للوزير جنودا شدادا غلاظا، زلزلت طرقاتهم على قصر الوزير بابه، فاستيقظ وقد اقتحم خادم غرفته: سيدي الوزير مولانا الخليفة بعث يطلبك حالاً.

بصوت حشرجه النوم والفزع ردد: الله يستر!

ارتدى ثيابه على عجل والهواجس تؤرجحه بين خشية ورجاء، وحين ولجت عربته أول بوابات القصر الكبير تذكر وصية والده: احذر ذوي

التيجان.. يرفعونك في عليين بكلمة، وتظل عمرك الباقي تخشى كلمة تهوي بك أسفل السافلين.

اضطربت أمعاؤه وهو يُقبل على المجلس. تجاوز الحرس والمستشار ليدنو من الخليفة الذي كان شبه مضطجع، وجهه الكالح انعكس على الوزير فشحب تماما. قبّل يمين مولاه ثم طأطأ منتظراً أوامره.

ببطء وبجدية قال الخليفة: أريدك أن تحسب لي عدد النجوم في السماء، وتعيّن لي مركز الأرض بدقة.

بملامح مفجوعة راوحت نظرات الوزير بين سيده ومستشاره الذي أشاح بوجهه.

ثم ردد لسانه المعتاد في المجلس على ألفاظ محددة: أبشر!

خرج وصوت الخليفة يثقب رأسه: إن لم تأتني بالجواب الشافي غدا مع طلوع الشمس فلا تُريني وجهك مرة أخرى.

وبدل أن يعود للبيت اتجه لبيت أبي نواس، أدخله الشاعر بيته فإذا بالوزير يتوسله: أنجدني.. أنا في مأزق لا حول لي فيه ولا قوة، ولن يساعدني في الخروج منه سالماً سواك.

أبو نواس جال في ساحة بيته ساعة، مرة يرفع بصره لقبة السماء التي تسقفه، ومرات يخفضها للأرض الرملية تحته.

سبابته على شفته السفلى وإبهامه يسند ذقنه. يفكر والوزير يعده بكل وعد يظن أنه يقدر على الوفاء به.

طلعت الشمس على أفواج بشر طار بينهم الخبر البارحة فجاؤوا للفرجة، دخل الوزير يجر أقدامه، أطرافه ترتعش وأنفاسه متلاحقة، والجموع حوله

تستر تعطشها للبطش بتعاطف باهت مع الضحية.

يصمت الجميع حين يدخل الخليفة، يتبوأ مقعده ليشير للوزير مباشرة: هات ما عندك.

- لم أنم البارحة يا مولاي أحسب نجوم السماء لأطلعكم عليها.

قدّم الوزير رقما عشوائياً لنجوم السماء، وبدل أن يوجه التحدي للخليفة قال للحضور: من لا يصدقني فليحصها بنفسه.

قطّب الخليفة، فانبرى مستشاره: فماذا عن مركز الأرض؟ هل حددته كما أمر مولانا؟

ينسف الوزير طرف عباءته ليخرج وتدا خبأه لهذه اللحظة، أسفل عرش الخليفة ركز الوتد ودقّه، ثم رفع رأسه: هنا يا مولاي مركز الأرض، فسبحان من جعله تحت ظل عرشك.

ضحك الخليفة مجاملاً جمهوراً هلّل للوزير، أثنى على ذكاء وزيره ثم صرف الحضور، وبغضب أمسك بتلابيب المستشار: قلت إنها خطة ناجحة تظهر عجزه وتريحني منه..

- مولاي مهلك.. إن كان نجا من هذه فسيقع في غيرها.. أعدك.

زفرت الأم حين سكتت البنت: يعني؟! لمن أصوت؟

انقطع الهاتف قبل أن تأتيها الإجابة، تحاول إعادة الاتصال وتتكرر بصرامة رسالة شركة الاتصالات الكئيبة بأن الرصيد لا يكفي.

انتظرت بيأس صوت ابنتها، ثم دخلت من بوابة تبلع النساء. استقبلتها موظفات بوجوه لها قدرة على بث عدوى جمودها في كل قادم.

في الورقة التي مددنها بها وقعت عيناها بسرعة على اسم حماها. أشرن

لحجرات زجاجية وراءهن، ورغم أن المكعب الذي دخلته كان أقرب شكلا لمصعد إلا أن وِجْنَة شعرت أنه حجرة أشعة. ضمت ساقيها وأرخت عباءتها، فحصت القائمة غير الطويلة مرة أخرى بحثا عن اسم ابن عمتها، تحسس إصبعها المخضب بالحناء الاسم بحسرة. رسمت إشارة الصح التي دربها عليها رجلها وطوت الورقة .

في البيت أسمعت زوجها وأولادها ما أرادوا سماعه، ثم اتجهت لحجرتها، دخلت عليها ابنتها وهي تبدل ثيابها، قبّلت البنت رأس أمها: انقطع الخط وانتظرتك لتتصلي مرة أخرى (حين لم ترد الأم أضافت الشابة بحرج) جوالي يستقبل فقط.

دست الأم جسدها في فراشها وأعطت بنتها ظهرها، رفعت الفتاة طرف اللحاف مبتسمة: لمن راح صوتك يا أم فالح؟

جذبت وِجْنَة الغطاء بغضب: وهو صوتي يفرق؟!

خمس روايات لما وقع ليلة الثامن من رمضان

1

قرار الذهاب للاستراحة أسهل من تنفيذه، تظن بناتي أن الحجز هاتفياً هو المهمة الأصعب وقد أنجزنها، أما الوصول للمكان فلا شغل لهن به غير يقين لا يتزعزع أنه سيتم بسلاسة. الحقيقة أن انتقال ست عوائل صغيرة لأطراف البلدة عملية شاقة، أما في رمضان فالمهمة أشبه بترتيب لقاء قمة عربية طارئ لم يكتب أحد بنوده.

عزمت أن أشرف على كل التفاصيل، وأكون آخر من يخرج من البلدة، أم العيال رأتني في المطبخ أراجع قوائم شفوية للعتاد فنكست خطتي لتخرجني من عرينها: رح باثنين من العيال لتفتحوا الاستراحة.. وتأكدوا أن عاملها روى العشب وملأ المسبح ماءً قبل أن نصل.

انتقيت أشد الصبية حماساً؛ ثلاثة صقور سيكونون بيادقي للغارة على المكان، ركبوا معي السيارة والتفت لأثني عليهم مقدماً فإذا بعاملتين منزليتين تقفزان لتزاحمانهم في المقعد الخلفي، من تحاشيهما أي اتصال بصري معي جزمت أنهما تلقتا أوامر عُليا بعدم التقهقر؛ لا بأس فزوجتي تعرف أن المكان إن لم تلمسه امرأة يبقى موحشاً.

غادرنا سالكين درباً ملتوية بين مزارع النخيل. تلوت على فتيتي المهام التي تلي الوصول. توقفنا عند آخر بقالة قبل الاستراحة وانطلق العيال ليطلبوا من العامل رقمه؛ فهاتفه سيكون الأكثر حضوراً في سجل جوالات

بناتي وزوجة ابني وعيالهن لمدة تسع ساعات.

أوصيت الغلام على يميني بأن ينتبه للافتة الاستراحة حتى لا نُفوّت مدخلها، وباريت شمسًا وئيدة الخطى صوب مغربها. فجأة ضجت السيارة ولوحت الأيدي تشير يمينًا: يبه هنا..هنا.

كحارس حصن منيع وجدنا البنغالي أمامنا، تفحّصني لحظة ثم استدار للباب البني العريض، باعد بين طرفيه فانفصلا كطرفي عباءتي الشتوية حين تعبث بها الريح. من الفُرجة التي تتسع بانت جنة خضراء، قبل أن أنطق هرولت العاملتان باتجاه المطبخ، وفي ثوانٍ عادت أكبرهما سنّاً تسرد عليّ قائمة قصيرة بالنواقص الضرورية مع تشديد على أن أكلم «ماما الكبيرة» لتأتي بها.

أقلقني أن أجد نفسي وحيداً بعد أن بلع المطبخ العاملات وألهى الصبية استكشاف الاستراحة، لم يكن لي من خيار غير حوار متقشف مع عامل جُمله مكسرة. ملأ المسبح وأنا أعترف له بأنه لولا رغبتي في إسعادهم لمنعت الاقتراب منه. خرج وتربعت على السجادة المفروشة في قلب العشب بانتظار الآتين.

بعد نصف ساعة وبضع اتصالات سمعت صوت طحن عجلات أول سيارة للحصى أمام الباب. كل رتل يقبل يتقدمه صغاره كانفجار لوني، أوصيهم بالهدوء وأتذكر تحذير جدتهم «لا تنكد عليهم»

تقنعني بأني أنكد عليهم وهي تشغل نصفهم ليرتبوا لها جلسة مريحة، وتقنص كل مارٍّ بها لينفذ لها رغبة غير ملحة!

الحقيقة أن أحفادي كائنات لطيفة لولا صخبهم وتأرجحهم على حافة الخطر كل ثانية.

تدخل بناتي بأواني طعام أكثر من عددنا، وأشكر جهدهن مذكراً نفسي

بضرورة تقديم ثناء أجزل بعد الفطور.

أنا مايسترو ليالٍ كهذه حتى ولو بلغت من العمر عتياً، أنا دينمو العمليات الذي يترجم الغايات إلى تكتيكات ويشرف على تنفيذها.

كيف حصل ما حصل؟! كيف سقط الصغير ولم أنتبه له؟! أهي غلطة الشاطر؟ مفتاح المسبح كان في جيبي. لم أتخل عنه، ولم يحركني إلحاح الصغار الذي تدغمه خشيتي، كيف أخطأت ووثقت بمن تعهدت بأن تتحمل مسؤولية المراقبة؟!

2

ارتديت قميصًا وتنورة قصيرة، درت أمام مرآتي دورتين، التقطت لي صوراً عديدة. فحصتها لأنتقي واحدة وأرسلتها لقروب صديقاتي، بعد قبلتين وأربع وجوه تعبيرية مجاملة منهن خلعته وعدت أنبش دولابي.

عرض فستاني القطني المورد نفسه علي. قلت: سيكون الأنسب لأنفاس الصيف الكاوية. تذكرت أننا سنلعب والفستان لن يكون عمليًا فاستبدلته ببنطلون قطني أسود وقميص بلا أكمام. قدّرت أنه سيبدو جميلًا لو ظهر طرفه في صوري التي تحصد الكثير من الإعجاب في الانستغرام.

دخلنا الاستراحة وكنت قد فتحت كاميرا جوالي راجية ألا يكون عيال خالاتي الصغار قد عاثوا في الأرض فساداً قبل أن أصورها.

نبرة أمي وهي تناديني تثير الأعصاب، عاهدتني ألا تحرجني أمام أخوالي إلاّ أن ثاني خطوة في محيطهم أفقدتها ذاكرتها.

في الاستراحة من العاملات أكثر مما فيها من بنات ومع ذلك لا يهدأ لها بال إن لم أنقل حاجاتها من السيارة إلى المطبخ!

أنهيت لقطاتي النهارية قبل آذان المغرب. المسبح في الصور ماؤه أنقى، ثيّل الاستراحة في كاميرتي أشد خضرة.

بعد الفطور دخلنا خمس صبايا حجرة كبيرة، قالت إحداهن راسمة بيديها مستطيلا وهميًا حدوده جدران الغرفة: أتصلح هذه؟

تفحصت مساحتها والمسافة بينها وبين جلسة جدي وأخوالي ورفعت إبهامي: تمام!

شغّلت الدي جي والأخريات يقترحن أغنيات افتتاحية. التقطت صورتين وجعلت أولاهما هيدر بروفايلي في تويتر.

بعد الأغنية الأولى جاء خالي وراقصنا، ثم طلب سامرية ورقص وحده، صورته فيديو، وسأفاجئه بعرضه في قروب العائلة بعد عدة أيام.

جاءنا مندوب جدتي تطلب أن ننقل الطرب لجلستهم «لأراكم وأنتم ترقصون»لكنها وسط أغنية أوحى لنا جدي بها وقفت ترقص.

كنت أصورها حين جاءت خالتي تصرخ. بين يديها طفل رأسه يتدلى وهو مبلول وساكن.

ألقته على الأرض وأحاطت به الأجساد. جمدت في مكاني أراجع وجوه الصغار تحت سن الثلاث سنوات المنتشرين في أرجاء الاستراحة لأتأكد أيهم الغريق؟

بعد أن فارقني الجمود الذي تلبّسني برهة اقتربت وشغلتني فكرة مخجلة ولحوحة وهم يراجعون على غوغل تفاصيل الإسعافات الأولية: الآن لو

مات يجب أن أغيّر الحالة في الواتس وأحذف آخر صورتين في الانستغرام.

3

النوايا الطيبة تظل معلّقة في الفضاء حتى ينجزها المال، هل يدرك أهلي ذلك؟ ما ألاحظه أنهم بإيعاز من حدس لا يفهمونه يؤجلون مشاريعهم الترفيهية حتى أعود للبلدة، ويسمون ذلك حبًا وحرصاً على وجودي.

واجبي ليس فقط ألا أشكك، بل عليّ أيضًا أن أظهر امتناني لهم.. لا بأس فما أدفعه خسارة سهلة إن قارنت متعة كل لحظة معهم في أيام وحدتي البعيدة.

أمي ركبت السيارة قبلي وتستعجلني، ومع إلحاحها أزيح الانزعاج الذي يتلبّسني: إجازاتي القصيرة فُرصٌ فريدة للبرّ بها.. لن أكسر لها كلمة، وسألبي كل طلب.

أتوقف عند الصرافة وتشد كمي: ما يحتاج «جعل عمرك طويل» البنات حجزن الاستراحة ودفعن المطلوب مسبقاً وأغراضهن كلها معهن، عجّل.. تأخرنا.

أعرف إنها لا تتعمد وضعي في مقارنة مع شقيقاتي لكنه يوجعني، وهي تقطع غمغمتي بالرد على اتصال: هلا.. أنتم فيها؟ الفاكهة والتمر؟!

تحدث جوالها المندس بين أصابعها وضفيرتها: «الرطب سنمر السوق لنأتي به، (تختلس نظرة لي) والفاكهة ما لنا بها حاجة.. من يأكلها في رمضان؟! الله يعز النعمة»

أعود باتجاه حلقة الخضار التي تجاوزناها من خمس دقائق، أشتري رطباً،

وأتخير فاكهة، وهي تفتح نافذتها وتخبط جنب السيارة: الله يهديك من يأكل ذا كله؟ يا دبرة الله! المغرب سيؤذن ونحن لم نصل.

في الاستراحة كان يجب أن أقعد مواجهاً الباب وأرهف السمع لجرس دراجة عامل البقالة على رأس كل ساعة. طلبات الصغار التي لا تنتهي لا تعلمهم ولا أمهاتهم تجهيز حسابها قبل أن تصل. يقف الرجل بضع دقائق ثم يأتي السؤال: كم حسابه؟ وتبدأ حمى البحث عن الحقائب، وصيحات توجيه الصغار والخادمات للتفتيش عنها، لا أذكر عدد المرات التي أخرجت فيها محفظتي وأقسمت ألا يدفع أحد غيري، الأكيد أن عددها أكثر من حسبة أيام إجازتي.

كان أفضل ما دفعت قيمته برأيي كرتي طائرة خفيفة ورزمة بالونات نجت من موسم احتفالات نهاية العام.مكتبة سُر مَن قرأ

يبدو أن من طلبتها أرادت صرف الصغار عن التراكض في الزوايا البعيدة عن الأنظار، إذ أن مراقبتهم واستباق خطواتهم الخطرة مرهق جدًا.

كتب على البالونات «مبروك النجاح» ولم أرهم ينجحون إلا في تفجيرها، وإرهاق الخادمات وهن ينفخن بديلاتها وسط إلحاحهم الباكي، لكني كنت أطفو في فقاعة بهجة لذيذة حتى أني حين سمعت الفتيات يرقصن على أنغام أغنية مغربية انسللت من بين والدي ودخلت أرقص، ربما كانت هذه غلطتي؛ إذ أخليت موقع المراقبة فقفز الصغير في الماء.

خرجت على الصياح، وكانوا قد أرقدوه على جنبه. أيادي أخواتي تعالج جسده البارد؛ يد تخلع ملابسه المبلولة، ويد تلفه في منشفة جافة، ويد تضغط على بطنه لتخرج الماء من جوفه، نزعته منهن وركضت به للمستشفى.

أمه تنشج، وخادمتها تفرك قدمه وتبكي، تخشى أن نلومها، المسكينة

ضحية إضافية لفلوسنا الملعونة، تلك التي لا تسعد أحدا.

4

نقترب من الاستراحة وألحظ سيارة زوج أختي. أرصد من ينزل منها وأنتبه لتشكيلة معجنات أختي الشهيرة والتي تلبي رغباتنا المتنوعة. أقارنها بما معي. كنت تعهدت لهم بالشوربة، والسمبوسة، هذه الحوافظ ستحسم أول منافسة وبها سيتم تتويج المرأة الأجود طبخًا بيننا، ويليها رهانات أخرى حول الأكثر أناقة والأفضل تهذيباً لصغارها، وبالطبع ستبقى كرة الطائرة ساحة حسم ذكورية رغم أنا عدد البنات اللاتي سيشاركن أكثر.

وقعت عين زوجي على ابنة أختي وهي تدفع الدي جي صوب المدخل. هز رأسه: حتى في رمضان ترقصون؟! لا حول ولا قوة إلا بالله!

ضحكت: «الحمد لله! صايمين، قايمين.. طايعين الله» إذا أفطرنا وصلينا وأردنا أن نرقص، فما المانع؟

لم يكن ليجادل في هذه، قال: انتبهي للولد، أعرفك.. إذا كنت عند أهلك تنسين اسمك.

كرر كلامه لابنتي ثم للخادمة، يقلقني سوء حدسه ويبهرني إصراره. حين وقفنا زفر زفرة من صارع نفسه طويلاً ثم وضع يده على جبين الصغير يحصّنه من شر المكان وما فيه، وأنا أنقله من يدي الملاصقة لباب السيارة للأخرى كي أنزل.

حين سمع أصوات الصغار أفلت من يدي، كان نصفه خارج السيارة

ويدي تقبض على أسفله.

دخلت الاستراحة أجري خلفه، وأرد على اتصال زوجي وهو يؤكد: لا تدعي الولد يقترب من المسبح!

بعد الفطور بدأوا يسبحون، لم أشأ مشاركتهم لكن الصغير ظل يجرني ويبكي. غيرت ملابسي ونزلت به في الجهة الخاصة بالصغار.

بعد ربع ساعة أردت الخروج فبكى، صراخه لفت الأنظار، فأخذته خالته، دارت به في المسبح دورتين ثم ما إن رفعته لي حتى كان عويله أشد، وفي المرة الثالثة حاصرتني عيون الشقيقات وزوجة أخي بالتهمة القديمة أني أدلل عيالي فأخذته وصياحه يشق طبلة أذني ويكوي قلبي.

عاد للماء.. لم أعرف متى، ولا أعرف كيف سقط، لم يلحظ ذلك أحد، قد يكون ظل في الماء لثوان، وربما لعدة دقائق.

سمعت الصياح وهم يهرلون ناحية المسبح، اتقد لهيب في صدري أنبأني أنه ولدي. اقتربت منهم والألم يخدّر جزئي الأسفل، بركت أنشج وقلبي كعصفور جريح يصطفق بين ضلوعي بعنف.

الطريق صوب المستشفى لا ينتهي، وهو منطرح في حجري وأنينه الضعيف يرعبني.

رجعت للاستراحة، وتخاطفت الأيدي حبيبي، وخنقتني النظرات اللوامة. رتبت أعذارًا لزوجي لن يقبلها، بينما غمرت صغيري قبلات يكفّر بها الجميع عن غفلته.

العبرة تنقب جدار سكوني، وتهوي بي في خواء سحيق. لكني لم أرد تخريب الليلة فلبيت أول نداء للعب.

5

كنت منهكة في فراشي بعد صلاة الفجر. جوالي على الوضع الصامت، تضيء إشارته كل ثانية لتنبهني لجديدٍ فيه لن أطالعه.

فتحت الواتس آب على قروب أهلي، كان في المحادثة أكثر من خمسين رسالة ثلاثة أرباعها أسئلة عن طلعتنا للاستراحة.

كتبت لهم: ألم أقل لكم أنهم عائلة غريبة؟!

عائلة الفرح واللطافة، لم أر بيتاً يجتهد في خلق ما يسليه كما يفعلون، أظنهم تعودوا ادعاء أن كل شيء بخير، أو أن قلوبهم ماتت.

غرق ولد بنتهم وهم يرقصون فلم ينتبهوا، ربما هي عقوبة من الله. صياح من انتشلته من الماء لم يميزوه في غنائهم وتصفيقهم. ظلوا يقلبون جسده ويتبادلون إرشادات مرتبكة. أحسست بمغص في بطني وهم يضغطون بطنه، الرغوة التي خرجت من فمه لا تشبه الماء ولا الحليب، قال أحدهم ربما هو تأثير الكلور في المسبح.

حماي ركض به وهم يلبسون أمه عباءتها لترافقه. خادمته التي لم تنتبه له لم ينهرها أحد، وظلوا يرددون بعد ذهابها: حسن فعلنا لو بقيت هنا لأكلها القلق!

بكت الجدة والخالات ولامت كل منهن نفسها، أحرقن الخطوط بين جوالاتهم وهواتف من ذهبوا بالولد للاطمئنان عليه، لكن عودة الغريق محت ما قبلها. بعد صمت قصير اقترح أحدهم أن يلعبوا: تسابقوا، لعبوا

كرة طائرة، حتى أم الولد شاركتهم!

الخالة التي اقترحت اللعب بعد المصيبة قطعت يدها بالسكين، وسال دم غزير، كان وجهها شاحبا وهي ذاهبة للمستشفى. عادت بأربع غرز وبشهية مفتوحة للعشاء!

كانت ليلة كارثية لكنهم سيتذكرونها غدًا بحنين يقفز على كوارثها. أنا حقاً عاجزة عن فهمهم.

***

في ليلة لاحقة، ظهر الصغير الغرقان على سناب أخته راسياً كربوةٍ والكاميرا ترصده: «أنا رحت للماء.. المسبح.. غطست في الماء.. أنا أبكي.. ماء كثير في فمي.. في بطني.. الماء حار..»

- أنت خفت؟

تتشنج عضلات وجه الصغير ويزم شفتيه واضعاً راحتيه على بطنه: أنا أخاف، أغمض عيني.. الماء يدخل فمي.. أنا بردان.

بنبرة مشاكسة تسأله: المسبح حلو؟

- لا

- نروح نسبح؟

يبسم الصغير..

مكتبة
t.me/soramnqraa

قرية القصر

يقول محسن الهزاني:

«نهاره كما ليل بهيم، وليله

نهار من إيضاح البروق اللوامع»

جفناه خدران والقرية تضللها قبة ملبدة بالغيوم، غيم أسحم يكسو السماء، كقطن قذر تحلجه يدٌ لا تكلّ. ولا يعرف أهل القرية متى فقدوا عادة النظر إليه.

بيوت القرية القليلة المتناثرة لا ترى شمسًا ولا قمرًا، وقد حلّ أجداد قاطنيها معضلة الزمن بمواقيت القصر الكبير على الرابية الناتئة؛ إذ أُوحِي للأقدمين بأن المنارة في ركن القصر تشق الغيم فتعرف النور من الظلمة.

يفوح الهيل في دِلال القصر فتصحو القرية، تتنفسه أبوابها فتطقطق مفاصلها، أما الجوع فيقرقر في بطون ناسها حين يلطم وجوهم ما فر من دسم قدور القصر، ساعتها تطبخ القرية حصاها وتستعجل قضمه على رائحة الزفر قبل أن تتلاشى.

الليل تعرفه القرية بلا شك حين تبدأ العرضة، ترج دفوفها سكون الأكواخ فتتوقف عن حرث حقولها المملحة. بقية من همم النساء تكفي مع الطبول لإعداد العشاء والقبض على الصغار، يجلب الآباء أقمشة مبقعة، ويُمهد الصبية لوضعهم في مراقدهم.

تعزف أوركسترا القصر عزف كونشيرتات من فصول فيفالدي الأربعة،

وتظل كعوب الصغار تعارك مهادها، ثم يتحسس الأزواج بارتباك أجساد بعضهم تمهيداً للنوم.

***

«وإن تشوقتكم بعثت لكم

كُتُب غرامي ومنكم الكُتب»

في سباتهم حلُمت بهم عمتهم النخلة، انبعث جن الرمل يعزف، نفحت هي بجريدها طربًا، فشق رمح ذهبي الحجاب الرمادي الكثيف، اصفرّت السحب حوله مرتاعة والرمح يوسّع ما فتق.

طلائع النور وكزت اللحم العاري، فتنبّهت عراقيب انفلتت من الأقمطة.

تزحف أجساد غضة بلفائفها ناحية الضوء، سعيها المحموم يمزق أكفان سباتها الدوري، حين يستوي الغلمان قائمين على أرجلهم يوقظون أهاليهم.

لحظات صمت مهيبة تمر وعيونهم تشرب الضوء وتفحص به ما حولها، تفاصيل حجبها الغيم دهرًا عادت: النقوش الملونة على أبواب بيوتهم الخشبية، ملامح الأحباء، ضفائر الصبايا، تقشف مواقدهم.

تقع أنظارهم على أكوام النفايات، ويتذكرون رائحة العفن التي تزفر في خياشيمهم بين وقت وآخر، يتذكرون نيتهم العمياء القاضية بإزالتها، وجدالهم اليومي حول موضعها.

الفتيان يبهرهم النهر تحت قريتهم، النهر الذي انحرفت القرية منذ أول عماها عنه صوب البركة الراكدة تشربها.

يرجعون البصر كرتين فإذا بقرص برتقالي يسطع في كبد السماء.

صداع يطحن نواصي الكبار ومحاجرهم، يزيده العيال بصيحات

ابتهاجهم وتقافزهم وأصابعهم تقرأ الوجود في النور. تترنح أعناق الكبار بثقلها بحثاً في أوجه بعضها عن شفاء من طنين يتضاعف في جماجمهم.

يهمس أحدهم بتبجيل: أهذه هي الشمس التي كانت سيدة نهارات الأسلاف؟!

- فهو الصباح إذن؟

- يوم جديد؟! لا يمكن، مستحيل.. قهوة القصر لم تعطّر أزقتنا بعد.

***

جاء ذكر القصر ليلتفت الجميع نحو الرابية الغافية. قبل تلك اللفتة الجماعية هربت بقايا الغيوم حين جففت الشمس حمولتها، انسكبت موجة جديدة من أشعتها على القرية، انتعشت مفاصلها فتمطت، وتضاعف في ثانية حجم أبوابها ودروبها وأطوال حيطانها وأجساد أهلها، ولأن ذلك حدث بحسبان وفي تناغم لحظي مدهش لم ينتبه أحدٌ له، وكان يمكن ألا يفطنوا لو أن ذاك النمو شمل القصر ورابيته.

حين التفتوا للرابية راعهم كم تقزّمت؛ لم يعد سهلاً رؤية قصرها اليتيم.

صداع أسرى المألوف تضاعف، خوفهم أساء ظنونهم ببعضهم، توجس كل منهم من صاحبه، كشّروا عن أنيابهم باحثين في العيون عن طموح سطوة خفي.

بتر كهل هواجسهم: ارتفعت الشمس قدر رمح ولم نصل الفجر!

اتجه للنهر ليتوضأ وعينه تبحث عن ظلالهم وراءه. حين طهّر ظاهره تقلّب وجهه في سماء كمرآة بحثًا عن القبلة، قبل اليوم كان يصلي عكس اتجاه لغط القصر، والقصر الآن غارق في صمته.

امرأة انكبت ترتق فتقاً في ثوبها، وأخرى شمرت عن ساعديها تطهو فطور عائلتها، ورجل دخل في جدل قصير ثم حمل مسحاته واتجه للحقل، أما الأكثرية فتوجهوا للقصر.

***

«قال لي: ما أراك سواه ولم يُرك نفسه فقد مكر بك»

ما إن رفع الماشون أرجلهم ليتقدموا خطوة حتى غدت الرابية بقصرها خلفهم، عادوا خطوة فراغ أمامهم.

بعد عدة محاولات بائسة كلّ المتحمسون وقعدوا.

في الهاجرة أكلت كل البيوت وجبة لم يتفق القاعدون إن كانت فطوراً أو غداءً، ثم عاد النقاش حامياً، وبدأ خيط دخان واهن يتلوى مرتفعاً من أعلى القصر.

تشممت أنوف الرائحة، وأقسم بعضها أنها تشبه القهوة. وازداد صداع القرية.

العاملون في الحقول كانوا قلة مترددة ذاك النهار، وعزيمتهم المحدودة انطفأت حين غطّست الشمس قوائمها في النهر.

سكن الصغار على الشط، بهرتهم صفحة خدها حين استعادت لونها البرتقالي وهي تتوارى خلف صفحته.

الظلمة التي أعقبت غيابها أرعبت القرية، ظلمة لا تشبه اللون الرمادي المحايد المعتاد. بعضهم قال: انشغلنا بالحكي عن تأملها. وعضّت الحسرة القلوب.

هتف أقربهم بيتًا للرابية: هذا النهار هلوسة جماعية، وحلف ماسحاً

براحته شاربه وعارضيه (وهي حركة -كما يجب أن أنبهكم- لم يرها أحد في الظلمة): ستتأكدون حين نصحو مع ريحة القهوة غداً.

عادت النساء تقبض على عراقيب الصغار وتمهدهم، كانوا قد أهدوا النهار أغانيهم، فناموا على أحلام زاهية، أما الكبار فوضعوا جنوبهم بكسل، وعافوا طقس الغزل الليلي مشغولين بالغد.

انطلقت أوركسترا القصر تعزف، أصاخوا السمع قليلًا ثم اختصموا، وأقسم بعضهم أن العرضة لم تسبقها.

***

بعد أن سكت العزف انحدر عليهم مسن نتن الرائحة (أعرف عمره لأني رأيته أما هم فقد حدسوه من لهاثه ومن أوتاره الصوتية الصدئة)

اقتضى كرمهم العربي وهم يوافونه في مجلسهم ألا يسألوه عن اسمه ولا غايته، وما أمهل فضولهم. قال: إخواني وأحبائي إني نذير لكم مبين، ومعي مفتاح الغد ومزلاجه فلا نجاة إلا باتباعي.

لم يكن بالجمع من طاقة للتشكك، سكوتهم أراح المسن فأكمل: أعرف أن التعب نال منكم شطر هذا الأسبوع، لقد كنتم يا إخوتي ضحية خدعة، ألم تنتبهوا كيف غشي على أبصاركم فرأيتم شمساً ونهراً؟

ألم تتصدع رؤوسكم؟ ألم تختصموا ويمسك بعضكم بخناق بعض؟! أما ضيعتم حس الزمن فحسبتم أنكم في يوم طويل متصل وعجيب؟!

يخطب فيهم المسن ويهزون رؤوسهم: بلى.

ويكمل: أما لاحظتم أنكم لم تهتدوا لدرب القصر، ولم تشموا ريح قهوته ولا سمعتم بوضوح عزفه؟!

بأصوات مبهورة الأنفاس رددوا: وصفت ما حصل.

قال: هذا السحر العظيم.

تشككوا: سحر؟!

- سحر. وحيكت عُقدُه حولكم،

بعد أن جادلوه قليلاً استفهموا: ألن تشرق الشمس مرة أخرى غداً؟!

- نحن في الغد الآن، أتيتكم بعد أذان الفجر في القصر، وستشمون ريح القهوة بعد لحظات.

- لكننا لم ننم بعد!

- هذا من أثر السحر فقد ظللتم سادرين فيه ثلاث ليالٍ حسوما.

- فما الحل؟

- الحل صعب، لكني بعون الله أرشدكم؛ ارجعوا إلى سيرتكم الأولى، ناموا حتى يصحو القصر، وتغدّوا على ريح قدوره، واهجعوا بعد العزف الأخير.

قال رجل في أوسط عمره: لقد اتجهنا اليوم للقصر، وما استطعنا الوصول له. وبتحرج تنحنح مسلكاً حنجرته قبل أن يضيف: وبدا أنه أصغر مما كنا نظن.

ضحك المسن ضحكة مجلجلة، فاحت معها رائحته البخرة، فأزكمت أنوف ودمعت عيون وانقلبت أمعاء.

وصلة التعذيب الضاحكة زادت إعياء أجساد أهل القرية، طالت حتى غدا سكوته أمنية، ثم قال: هذا إفك مبين.. القصر العظيم على رابيته وسترون

متى انتظمتم على مواعيده وبطُل عنكم السحر أن حجمه لم يتغير.

***

بعد جولتي قهوة من دلّة الضيف غفى الشاربون، وقبل أن يغادرهم الطارق شقت الصمت شخرة صغير نائم. تذكرت القرية أول يقظتها، وكان لزامًا عليهم أن يطرحوا المأزق على النتن: سيُطل السحر من بين الغيوم مرة أخرى.. فإن أيقظ عيالنا ومزقوا أقمطتهم فما نحن فاعلون؟

يهز رأسه فيحثو في وجوههم المفتوحة غباراً حامضاً، يمرر أفواههم، ثم يقول: هذا الخطر الأعظم.. شدوا مهادهم كما لم تفعلوا من قبل، وأدخلوهم الآن حجرات بلا كوى فيسلمون، لأن تأثير السحر فيهم أشد، ولو لم تفعلوا فسيصيبهم مس وستفقدونهم للأبد.

انسل منهم والرجال يشمرون عن سواعدهم، لكن أيدي الأمهات صدتهم عنهم وأرخت المهاد.

«اهرب يا حبيبي، كن كالظبي، أو كغفر الأيائل في جبال الأطياب»

الأطرم

أدرك كم هو صعب أن تصدقوني لكني سأحاول، أنا المواطن ع. ف. م، وثمة مشكلة لازمت سنوات عمري الثلاثين. اليوم فقط وصلت لأصلها؛ لساني تمَّ قطعه في حياة سابقة.

قناعة بلا براهين؟! حقاً؟! فأنتم مثل أهلي وزملائي ستسخرون دون أن تسمعوا الحكاية؟!

ها أنا أكتب إفادتي الآن، لستم أمامي لتحبطني أجسادكم وهي تفضح أكثر منكم عدم رغبتكم في منحي فرصة إثبات ما أدّعي، لذا سأفترض أنها ظنوني لا خبرتي فيكم هي التي تجسّد أمامي عيونكم وهي تدور في محاجرها بحثاً عن حقيقة أخرى تحت ما أقول، وأن ظنوني لا معرفتي بكم هي التي ترينني أصابعكم في آذانكم، تنفض الكلام قبل أن يستقر في أصداغكم عبر الكهوف اللولبية، وأن ظنوني هي التي ترينني شفاهكم يمطها قليل من أدب لا أدري كيف أفلح في مرافقتكم كي لا تقولوا لي أن أخرس.

موقفنا هذا غريب؛ فأنا وأنتم على حدّين لا نهائيين للمكتوب، لذا سأغتنم كرم الاحتمالات لأحكي أولاً بعض مظاهر مشكلتي: فأنا أصحو كل صباح على ما يشبه خدراً مؤلماً وسط لساني، وأحياناً بطعم دم في فمي، هي شكوى تأخرت لأبوح بها، فهي تلازمني من الطفولة حتى كدت أعتبرها عرضاً صباحياً لولا ملاحظة صاعقة من أحد إخوتي.

أمي حين أفهمتها ما يوجعني شدت أذني، ثم أعلنت بثقة أنني ربما كنت بسبب لعبي العنيف مع عيال الحارة أعض لساني وأنا نائم: « تجمع الضيق

في صدرك وترقد به»

أمي التي نصيبها من الشارع خطوتان من باب بيتنا لباب السيارة تظن أنها تعرف الشارع! هي لم تشاهد الوحوش الملتصقة بحيطان الجيران بانتظار خروجي لتعذبني، الكائنات التي لها ارتفاع قامتي لكن الله أوكل بها إبليس يغريها بامتحان صبري كل يوم، فإن قالت وقفتي الأبدية لأحدها (لئن بسطت يدك إليّ لتقتلني ما أنا بباسط يدي) فإن ذلك (وهذه سنة كونية) لن يزيد الصبي المؤذي إلا تمادياً.

أبي بعد سنوات أخذني لطبيب، بسط الرجل لساني بعصا آيس كريم لها نكهة شجرة السدر الغبراء قرب مدرستي، ثم أخذ قطعة شاش وشد بها لساني حتى وصل ذقني.

الطبيب بعربيته الرديئة سألني ممّ أشكو؟ فعل ذلك في اللحظة التي كان فيها لساني المنتهَك يرتد ذليلاً لبيته الأليف في تجويف فمي، كنت مشغولاً بمسح لعابي الذي سال على خدي بطرف كمي، نهرني والدي: تكلم.. لا تنطرم الآن.

من بين كل ألقاب السوء التي نبزني بها إخوتي كان عليه تلك اللحظة أن يختار هذا، تذكرت كيف كانت حتى شقيقتي الوحيدة إن لاعبتها ومزاجها متكدر اشتكت لأمي بأن «طريمة» أغضبها، حتى البنت تدرك أن الشتيمة -إن تم تأنيثها - ملح على جرح حي.

بكيت؟! بالتأكيد بكيت، لو كنتم مكاني لفعلتم؛ كنت صبياً في الحادية عشرة وكان هذا أول مشوار أركب فيه مع أبي سيارته وحدنا، لندخل المركز الصحي الذي زرته حسب ما أذكر خمس مرات موجعة من قبل: أربع منها لتطعيمات والخاتمة لخلع سن لبني رفض أن يسقط وزاحم الدائم البديل،

اضطره لئن يطل في فكي الأعلى كباب حجرة موارب، وحينها خلعوا الأصلي!

كل ما فهمته من موجز ما قاله أبي لأمي حين رجعنا أن الطبيب علق على تغذيتي السيئة.

أتذكر المنحى الغريب الذي اتخذه ذلك الحوار، لقد انصرف عني في ثوان، إشارة أبي لقلة الأكل فهمته أمي اتهاماً لزوجها بشح إنفاقه على بيته، وهي تهمة يجب أن تدرأها كأي زوجة صالحة، قالت: والله إن الخير كثير، ما به قصور.. يا رب لك الحمد.

هز أبي رأسه وشد نفساً عميقاً، ثم استرخت يمينه على معدته واندس إبهامه في الفراغ بين آخر زرين في ثوبه، ساعتها تنبهت أمي أن ملاحظة أبي لها وجه مراوغ، بل ربما لم تكن نقلاً أميناً لما جرى في المركز، وربما اقتبسها ليتهمها بتقصير ليس في الوقت الآن متسع لإدراك حده. أخذ جسدها وضعيته المتأهبة متكئاً بثقله على رجلها اليمنى التي تقدمت خطوة للأمام، قالت: يا وجه الله! ولدك ما عليه قلة أكل، جاراتي الواحدة منهن تتبعها بدل الخادمة اثنتين وأنا لحالي بين خمسة عيال، وأنا أحسن من يطبخ في الحي، ولدك ذا ما أصابه إلا ما جاء أعمامه، ذا عِرقكم الله..

الآن دعوا عنكم تتمة دعاء أمي الذي بلعت آخره حين لفحها غضب أبي؛ تتمته معروفة، كانت ستدعو - كما تدعو في غيابه بصوت خافت - أن يقطع الله دابرهم (أهل أبي) لكن هل انتبهتم أنها تبرأت مني بكلمة؛ أمي قالت ولدك لتنسبني بعيبي له لا لها؟! أنا الذي تشكلت في بطنها، أنا الذي لو كان من شك في نسبي فسيلحق الشك أبي لا هي التي شهد ذات المركز الصحي صياحها وهي تطردني أول مرة من أحشائها!

لا بأس! فلنواصل، انتبهتم بلا شك أن أبي سماني «الولد»؟! جزّ صِلاتي من الجهتين، هذه العلة بلساني لا يد للاثنين فيها كما يبدو، وهذا أحرجني ساعتها لكني أتفق معهما اليوم فيه إلى حد كبير.

بعد أربع سنوات، وفي أواخر المرحلة المتوسطة افتتح فصل صعوبات تعلم ملحقاً بمدرستي الابتدائية سابقاً، عرفت أمي ذلك من شقيقي الأصغر وجربت أن تلمح لأبي بأن يأخذني للرجل الذي يفهم من مشاكل العيال أكثر من غيره من المعلمين ليحل مشكلة لساني، وبعد مشادة قصيرة نامت معطية إياه ظهرها، بالطبع لم أرها! يا لتفكيركم المنحرف، أنا سمعتها بعد يومين تقول هذا لرفيقة لها وتهمس بأنها اتصلت بالمدرسة دون أن تفصح عن هويتها وطلبت المدرس، وشرحت للرفيقة كم كان مرهقاً إقناع المدير بأن يستدعي المعلم دون أن يشفي فضوله من المكالمة. أمّنت الأخرى على كلام أمي بضحكة أستطيع اليوم مرتاحاً بأن أصف فرقعتها بأنها داعرة، وقالت كلمتين في حق المدير جعلته يتقزم في ذاكرتي، علّقت بعدها بما معناه بأن المسكين محروم، وأن الصوت الأنثوي هبط برداً وسلاماً على قلبه الظامئ في يوم قائظ، فكيف يفلته بسهولة؟!

قالت أمي إن الأستاذ شرح لها مطولاً اختصاصه، ثم نصحها إن استمر قلقها بأن تبحث عن اختصاصي نطق ليجد سبب مشكلتي.

كانت لقطة فنية جديرة بالتخليد لو وافاها بعض الحظ؛ امرأتان أربعينيتان متقابلتان يد كل منهما على فمها تصمت ثرثراته لتفتش عن درب لهذا الاختصاصي المبتغى ومحل إقامته. بعد خمس دقائق خاوية ضربت الأخرى فخذ أمي: «ما به إلا في الرياض»

كانت الرياض في عين أمي وصاحبتها أم الدنيا؛ فلا علة تعجز الرياض عن مداواتها.

آه نسيت أن أقول لكم إني بعدها بسنوات زرت الرياض، الأخصائي الذي حلمت أمي بلمسته الشافية أخذتني له في المرحلة الثانوية، شقيقي الذي «لسانه أطول منه» كما تردد هي ويشكو أبي حمل ملفه متجهاً لجامعة سعود، شجعته أمي بسرد حلم فسرته بأن العاصمة ستعطي بكرها تعليماً ووظيفة أحسن دخلاً، ورشاه أبي بسيارة جديدة.

حين ذهب لينسخ شهادته وبطاقة هويته نسخاً احتياطية عديدة بكت أمي، فكنس أبي صورة شقيقي بيده: يروووووج، هناك يندرج في سلك الرجال، فإن زل لسانه دقوا فكه (وأكد الصورة بقبضته المطبقة يهزها قرب فم أمي، هي رددت بعد دمعتين بيت شعر يتنبأ بأن الليالي وحدها قادرة على تنبيه الغافل.

في السيارة الجديدة ركبنا نحن الثلاثة متجهين للرياض، وفي العيادة تولت أمي بسط المعضلة بحسب ما تراه، وهكذا كنت على موعد مع عصا الآيس كريم ذاتها، لكنها هذه المرة عبثت في فمي فترة أطول، كان اغتصاباً كاملاً لي بحضور أمي وأمام مرآة تضاعف عيوننا الست، والأخصائي يداري لذته بتعليمات أبوية منافقة.

إمعاناً في إحراجي، لم يفقد لساني تحت الفحص أبجديته فقط، بل حتى استيعابه للأوامر، كان أخرقَ يتدلى على شفتي السفلى إن طلب الاختصاصي أن أركنه في قعر فمي، ويربض محله ككلب باسط ذراعيه بالوصيد إن طلب مني أن أحركه يميناً وشمالاً. بعد أن غسل الرجل يديه أخفاهما في جيوب بنطلونه الجينز، نظر إلى ساعة الحائط ولا إرادياً وجدتني وأمي ننظر بذات الاتجاه، كانت هي قد دفعت مقدماً أجر ساعة معه ولم يكن قد مضى أكثر من نصفها، كان هذا مأزقه الأخلاقي لذلك اليوم، بظفر أصفر من التدخين حكّ الرجل مؤخرة عنقه، ثم قرر أنه سيختبر مخارج الحروف معي صوتاً

صوتاً؛ وتفلسف قليلاً في بيان الفرق بين الحرف والصوت فارداً صدره وقدمه اليسرى منفرجة قليلاً ليغمر قطاعها الزاوي ظل أمي، واجتاحني كره مفاجئ له وعيني تحرق ما بين فخذيه ترصداً لأي حركة تشي ببوادر انتصاب، تخيلت نفسي أهديه لكمة «ميلسيا مكارثي» في فيلم «آيدنتتي ثيف»

لن يشل الألم فكه ولسانه بل سيسحق قصبته الهوائية تماماً، ساعتها لن يستطيع النطق، وسيكف عن اشتهاء جسد والدتي تحت نظري.

كان يملي عليّ الأصوات وأسمعها وأنا أكررها «مُسلّمةً لا شية فيها» حين وصلنا «لا» كانت أوردة عنقه قد تورمت قليلاً، وقطرات العرق على جبينه تهددني بأن تسقط على ثيابي في أية لحظة، انطبقت شفتاي بعنف. ردد هو الصوت «لا..لا» وأمي تمسد كتفي وأشعر بدفء أصابعها رغم قفازاتها السود، وأنتبه أني لم أنطق الكلمة مرة في ما أذكر من حياتي.

بعد أن ملّ الرجل محاولاته زفر راشقاً الساعة بنظرة أخرى. انتبه أن ربع الزمن ينتظره ليملأه بما لا يخيب آمال الملتفة بالسواد قلقة الإيماءات خلفي.

كتب لي تمارين لعضلة اللسان، وتمارين تنفسية، ووعدني دون أن أطلب وعده بأني إن التزمت بها ستخفي حبسة لساني متى فرضت حضورها.

على درجات عتبات العيادة المتربة هبت موجة الغبار الاعتيادية، ورغم ذلك انطلق لسان أمي بدعوات لي وللدكتور، كانت طرحتها تنقي الهواء قليلاً قبل أن يدخل مجرى تنفسها أما أنا فكنت أتنفس تراباً لا شبهة فيه، لففت غترتي حول وجهي، وكان ينقصها كثير من الزرقة لتكون لثام طارقيّ اختارت صحراؤه الغربية اعتبار صمته حكمة، لا عيباً يجرجر بسببه إلى المشافي.

ما علينا! الرجل الذي تدعو له أمي لم يعالج الخدر الذي أصحو به

كل صباح ولا الألم في منتصف الكتلة اللحمية الرابضة في فمي. غني عن القول إني دفنت هذا الاختصاصي مع آخرين في واحدة من حجرات ذاكرتي الموصدة، ولم ير النور إلا هذه اللحظة كشخصية مساندة في حبكة حكاية لساني.

أمس في العمل اقتحم السكرتير مكاتبنا معلناً أن اجتماعاً طارئاً سيعقده المدير بعد صلاة الظهر، زميلي في الحجرة المتقشفة غمز لي: أتعرف سبب الاجتماع؟ ثم ضحك وأنا أهز رأسي ببطء علامة نفي ولا مبالاة. قفز من محله وقعد على حافة مكتبي الذي يغريه كما يبدو بالثرثرة، قال: مديرنا فاحت رائحته.. زلاته كثُرت.. ستأتي لجنة للتحقيق بعد ثلاثة أيام، لذا عليه أن يلملم ما يمكن قبل أن يُقبض عليه بالجرم المشهود.

أنا الذي أكره هذه النمائم التي لا طائل منها فرحت، ربما بانت فرحتي في وجهي فكبتها زميلي: ما يقهرني حقيقةً هو أني أعرف أن اللجنة التي ستحقق معه أشد فساداً منه وستأتي لا لتحاسبه على فساده بل على إهماله في جعل هذا الفساد مكشوفاً تتناوله الألسن، بالنسبة لهم هذه هي الخطيئة التي لا تغتفر، لكنهم لن ينكّلوا به إلا قليلاً.

هذا التنكيل القليل وزنته سبابة زميلي وإبهامه وقرّبته تحت ناظري حتى اضطررت للتراجع إلى الخلف. التصقت بالجدار وانفرش شماغي، فضاعت تشخيصة الكوبرا التي أحافظ عليها من مراهقتي. حاولت تعديلها فبدت غترتي كجناحي طائر اصطدم بعنف بزجاج نافذة شفاف لم ينتبه في تحليقه الغافل له.

شماتة زميلي بالمدير أو يقينه بعبثية الوضع عموماً أو ردة فعلي (لست واثقاً أيها السبب) زادت مزاجه إشراقاً فقهقه، ثم اندفع يتخيل اجتماعنا البائس وما سيقال فيه، بوقاحته المعهودة قلّد مديرنا مفتتحاً الاجتماع بالحث على

تقوى الله، ثم أثنى على النائب الذي له ميزة يتيمة تمحو كل عيوبه هي ولاؤه لسيده، وبدأ صاحبي كالمدير يوزع مهام يومين عصيبين على موظفيه.

قبل أن يكتمل شبح ابتسامة على وجهي التفت لي، عرفت أنه سيقلّدني حين انفرد جناحا شماغه حول رأسه، وضم ساقيه ثم دس كفيه في حجره، التصق بزاوية المقعد اليسرى كجنين وأمال رأسه يميناً وسهم بصره.

بعد الصلاة توجهنا لقاعة الاجتماعات، شعرت بالخدر الصباحي في لساني، عدّلت جلستي عدة مرات، نظرة المدير اللزجة اندلقت علي في وقتها المعتاد، قال بصوته البارد: وأنت عليك أن ثم سرد مهمتي الجديدة، كانت في القسم المتهم، والذي سيوضع على مشرحة التحقيقات، وهذا تفصيل لابد منه لتتفهموا ما سيحصل لاحقاً.

تلك اللحظة ملّ زميل من المشهد المكرر فعبث بالستارة، رمح الشمس من النافذة المقابلة طعنني في حلقي، مثل غريب كامو مورسو شوشني الضوء. وجدتني بعد أن انتقل المدير لنقطة أخرى أقف وأصرخ: لا! لا لعنة، لا.

لم أنتبه للجلطة التي كادت تصيبه، ولا لانتفاضة نائبه الذي لو طالتني يده لمزّقني، ولا للضحكات المكتومة التي سرت عدواها بين الزملاء، ولا ليد رفيقي التي تخبط براحتيها صدري الملتهب لتخرجني، كل هذا سيقال لي في اليوم التالي، وحين أروي الحكاية بعد سنوات ربما أدمجه فيها باعتباره ملاحظاتي الشخصية من الواقعة، لن يكون ذلك بدافع الكذب بل لأن نشوتي وأنا أستعيد الموقف مراراً مع نفسي لن تكتمل إلا بهذه اللقطات التي سأتخيلها في البداية ثم سأصدقها.

كل ما شعرت به هو ألم في عيني من الضوء الذي ضغط على قرنيتيّ،

ومهما ضاق بؤبؤاي ظلا يمتصانه ليضرب أوتار أعصابي في قاع جمجمتي.

الكهرباء التي نشطت في دماغي تلك اللحظة أوجدت سببين للغضب: هذا اللعين الفاسد يختار أن يحملني أثقل الأسفار لأني لا أنطق، ويستنتج هو أني لا أفهم، وهو مع تقصّده هذا لا يكلف نفسه حتى تذكّر اسمي.

حمى «راسكولينكوف» التي مهدتني البارحة لم يكن فيها أي شائبة أخلاقية، ولم تجلدني بهلاوس تذكر جريمتي في القاعة ولا عقابها، الصورة التي بدأت بصداع قبل أن تنجلي بوضوح كانت مختلفة، كانت لأياد بيضاء وأجساد مهولة ورطانة لم أسمعها من قبل، على أرضية حجرية رطبة وباردة تكتفني الأيدي، ثوبي الرمادي الذي لا يشبه لباسهم الموحد مبلول، له فتحة جيب واسعة وبلا أزرار، وقماشه الخشن نتن الرائحة، أحد القابضين علي يشد فكي تلقاء وجهه ويضغط بأصابعه عليه ليفتح فمي، يغتنم آخر الفرصة فيدخل يده ويقبض على لساني ويشده.

في لحظة اجتاحني ألم كصعقة برق، بسكين عريض بتروا لساني، الدم في فمي يغرقني، لا أستطيع بلعه ولا التنفس، والقطعة الباقية منه تصطك بأضراسي برعب باحثة عن بقيتها.

لكم الآن ألا تصدقوني، خدر لساني هذا الصباح خفّ، ليت المرحومة تدري.

لن أشمتكم بي وأقول إن العمل اليوم جحيم مقنن يصبه رجلان على رأسي حتى أقرر بنفسي تركه، فقط سأقول إن عيون زملائي لم تقدر على أن تقع على وجهي بعدم الاكتراث المعهود، أما المدير فقد انزاحت مشاعره انزياحاً منطقياً من الاشمئزاز إلى الكراهية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يعرف أن الحجر مغروس فوق الرؤوس التي استسلمت. وعيه والحجر يهشمان باقي أمانيه، وينفلت لسانه: اللعنة! المكان حار.. أشد حرارة مما توقعت، بطن الأرض أشد لظى من وجهها.. الملاعين أوصيتهم وصية وأهملوها! وصية وحيدة.. استصعبوها أو فاجأتهم بانتقالي فما أسعفهم الوقت؟! هي غلطتي كان يجب أن أنتبه أنهم لم يأخذوا كلامي بجدية.. هذا طبيعي.. لا شيء من أفكاري أو قراراتي تعاملوا معه بجدية، حتى حين جئتهم بخبر طلاقي حسبوني أمزح.

- إخخخرس!

صوت منخفض جاءه من جهة قدميه فأسكته، استجاب للأمر منتظراً مصدره ليفصح أكثر، وحين لم يضف الصوت كلمة تجرأ هو وسأله: من أنت؟

انطلق صوت أخف وأعجل نبرة بجواره: لن يرد، لكن لمصلحتك لا تعانده، ثم معه حق يا أخي كلامك كثير.. هل هذه صفة دُفِنت معك أم نبتت لك هنا؟

لا يستطيع أن يلتفت ليراه، لكنه قدّر من صوته أنه أصغر من الأول، فكّر في السؤال؛ رغبة التشكي اجتاحتني مباشرة بعد أن غادرني قرع نعالهم، لكني لن أخبر الغريب بذلك.

عوضاً عن التفسير سأله: أي يوم هذا؟

- ليس الجمعة.

- ما هذا الجواب؟!

- هذا ما عندي، الجمعة اليوم الوحيد الذي نعرفه في هذه الجهة غصباً عنّا، لكننا سنفقد هذه المعرفة ذات جمعة، وقد أذكّرك.

المدفون حديثاً جرّب إعادة فتح حوار لائق، قال لنفسه: سأعطي هذا المخبول فرصة أخرى، تنحنح ثم نطق: اسمي سعد.

خلافاً للرد الذي انتظره قال الصوت الخفيف: ليكن، أتعرف كيف تتخيل؟ نستطيع أن نلعب لعبة مسلية.

- وجع! أعطيتك اسمي، أما علمك أهلك أن تعرّف بنفسك إذا قابلت شخصاً جديداً.

بنبرة مراهقة رد: هههه.. أولاً أهلي بعيد، ثانياً الاسم الذي أعطوني إياه رددته لهم يوم وضعوني هنا.. ربما هم أخذوه معهم.. لا يهم، وثالثاً أنت لست جديداً.. أنت ميت!

الحقيقة الموجعة تكوي حين تصبح علنية، شعر بأن التصريح يُميته من جديد، شيء منه ينزع بعد جملة اليقين البارد التي نفثها في صميمه محدثه، حسرة حامضة تحشرجت كموت مفاجئ في جوف سعد، ظن أنه يبكي حتى فهم أن ما يتذرذر من عينيه رمل، عاد صوت الآخر ينتشله: إن كان لابد أن تسميني فاسمي «جارك الذي عن يمينك».. تلعب معي أو أكمل لوحدي؟

باستسلام باح سعد: طوال حياتي لم أطلب منهم شيئاً، وقبل أن أموت بسنوات ظللت ألح كلما خطر الموت في حديث بوصيتي، «لن أخرج من هذا البلد حياً فإن مت أخرجوني، أريد شاهدة قبر فيروزية، ادفنوني في أرض

خضراء على مجرى ماء أو أمطارها صيفية، واغرسوا عند قبري كرمة عنب» .. ها أنا يا جاري في الرمل الحار ولا أحتاج لتخيل الحصاة المثلّمة فوقي.

– إن سألتني هي تشبه سناً وحيداً في فم عجوز، نخرها السوس حتى ملّ.

– يتم! الآن صار لها رائحة..

– تدعو علي باليتم؟ وأنا ميت؟! "That's too much" لكن تراسل الحواس عندك مبهر، ستكون رفيق لعب مؤنس.. اسمع وراءنا بصفين (إن جاز الوصف) فتاة مذبوحة، عنقها مفصول عن جسدها، ثم..

– كيف عرفت؟

– جارني فقط ولا تكثر الأسئلة، بعدما ذبحوه ا..

– الله يلعن خيالك، ما يكفيك أنها ميتة؟! كان لابد أن تجعلها منحورة؟!

– الآن فهمت لماذا لم يتحمس أقاربك لتنفيذ وصيتك. لسانك يا أخي كارثة، يبعثر الفرص، ويجذب حواراتك جهة الألم، يعقد مقارنات دائمة.. والمقارنات توجع، وتعطي قناعة بأنك لن ترضى، آسف أن تحدثت معك Bye

لم يتحرك شيء، لم ينصفق باب، لم يشاهد ظلاً يبتعد، لكنه شعر بوحدة جافة لأول مرة هنا، يريد أن يتوسل للفتى المتخيل ليصل حبل الكلام، أراد أن يناديه، تذكر أنه لم يعطه اسمه، فرح بهذا العذر الذي سيحميه من عودة سريعة مذلّة لمن فضحه أمام نفسه.

تشاغل قدر ما يستطيع قبل أن ينادي القبر عن شماله: سلام! يا أخ.. يا أخت.. يا ابن الناس.. أنا جارك الجديد، أتسمح بكلمة؟

صمته المنتظر ارتطم بجدار كالبلادة، ثم تنفست الريبة في مسامه حين دوّت ضحكة كرصاصة، تحشرج تاليها كنحيب، بعدها غرق مرة أخرى في صمت دامس.

همس جاره الذي عن يمينه موضحاً: لن تطلع منه بحق ولا باطل.

اغتنم سعد مبادرة الجار فاستفهم: يضحك ويبكي دائماً؟!

– يعني، لكن مرات يغني، صوته عذب، عندما يغني نتسابق أنا ورفيقي الذي أمامي في تسمية أغانيه وإكمالها، المسلي في الموضوع أنه shuffling كمنسق مجنون، وذاكرته عظيمة ومرنة. وواضح إنه يعشق صوت أصالة وطاهر الأحسائي.

امتناناً للتواصل الذي عاد قال: ما أهمك اسمي فما رأيك أن أحكي لك حكايتي؟

دون تفكير رد الشاب الذي له صوت مراهق: لا داعي، الاحتمالات التي سأصنعها ستكون أجمل وأوسع، ولو استوثقت أنك لاعب جيد ربما أقدم لك بعض السيناريوهات لتضع معي لمساتك عليها، نرجع للمذبوحة؟

تسفيه الجار لأسلوب سعد في التواصل جرحه، أمسك لسانه وهو على شفا تذمر، وعاد الجار يشجعه: أهلها ذبحوها لأنها عشقت أو أن ثمة إرث ما صبروا حتى تتعب وتتنازل عنه؟

ليعانده رفض سعد تخيل أسباب نحر البنت وسأله عن المغني: يبدو غير متزن.. ما الذي لعب بمخه؟

ببساطة أجاب: كان يعمل في شركة البترول، تعرف براميلهم الكبيرة التي تلمع في الشمس؟ كان عليه الإشراف على تعبئتها وتفريغها، لم تجتهد الشركة في احتياطات السلامة لا له ولا لغيره، هههه يشم كيماويات حتى

غدا مخه مهلبية.

أراد أن يشفق عليه، لكنه لم يكن متأكداً إن كانت الحكاية حقيقة أو متخيلة.

عاد يُصرّح: أتدري توقعت أن الموت أصعب مما هو حقيقة.

- انتظر حتى تفقد باقي إحساسك ورغباتك ليصبح أسهل.

- لا أريد أن أتذمر لكن..

- من دون لكن يا أخي. تعال أحكي لك حكاية ستعجبك، في الصف الذي أمامنا القبر الرابع بعد الجدار، كل جمعة بعد الصلاة يزوره رجل في أواسط عمره ويحكي، يعطي أمه كل تفاصيل حياة الأسرة، من تزوج ومن أنجب ومن مرض، ملخص الأسبوع كاملاً، ثم يبكي، مرات يخبرها عن مزرعته، ومرات يشتكي من إخوانه، مرة سبّ الحكومة، أنا يضايقني إلحاحه على أن يخبر المقبرة كلها أن هذا يوم الجمعة وأنه خرج من الصلاة إليها مباشرة.

- مسكين، ماذا تفعل أمه حين تسمعه؟

-هههههه أمه امرأة متحفظة جداً، أظنها تزوره في الحلم لتنهاه عن بعض الحكي، لكنه لن يفهم على كل حال، لولاه ما عرفنا غير اسمها، برزانة قالت يوم وصلت «أنا بنت فلان» وتوقعت أننا جميعاً نعرف أباها، لكن الصحيفة الناطقة ولدها يأتينا بالأخبار.. المضحك الآخر في حكايتها أنه بعد غيبة قصيرة عاد وغلط في موضعها.. هي وراءنا بثلاث صفوف، والقبر الذي يقف عليه فيه رضيع لم يفطم، في البداية هدهدته الحكايات وقللت بكاءه، لكنها كبّرته بشكل عجيب، نضج يا أخي وهو رضيع.. تخيل!

يحكي وسعد بعيد، جمرة صغيرة في ملتقى ضلوعه تتوقد ببطء وبإصرار،

انتظم أهله في خاطره ألبوم فيديوهات قصيرة جمعها منتج بارع: أخته تضاحكه، أمه تدعو له، أبوه يستند على كتفه لينهض، أخوه يقبّل رأسه بعد أن عاد من سفر، حتى طليقته جاءته متعطرة بعطر أيام عرسهما.

ناداه صوت جاره: أعرف هذا الصمت، إياك والاشتياق لأحد وراءك، لو اشتقت ستظل تموت بلا انتهاء.

بحسرة أقر: لكني اشتقت لأهلي.

- أنت متطرف يا أخي، هم ملاعين حين قابلتهم على لسانك أولاً.. والآن ستموت عليهم؟!

سكت المدفونان طويلاً، مرت جمعتان، شهد فيهما حكي الأربعيني لأمه، دموعه في قيظ الزيارة الثانية رشت قبر سعد، ووسط انشغال ستة صفوف بنقل رسائل الولد لأمه نادى جاره: هل أستطيع أن أتخيل شاهدة زرقاء على قبري؟

- لقد وُضِعتْ بالفعل.

- تلعب علي؟!

- أنت مت مقتولاً بلا شك، أشك أن أحداً غير أهلك تحمّلك.. رأسك اليابس ما أظنه نفعك هناك ولن ينفعك هنا، لا تفهم القوانين ولا تلتزم بها، يا أخي هذا عالم قانونه بسيط؛ ما تتخيله هو ما ستحصل عليه.

- تريدني أن أتخيل الشاهدة وأرتاح؟! طيب والرمضاء؟!

- الرمضاء في رأسك يا أخي، تخلص منها، والشاهدة موجودة، ألا تصدقني؟ تحتاج برهاناً؟

صمت قبل أن ينادي جارهما الذي يجب ألا يعانداه: الأخ هذا على قبره

شاهدة زرقاء، أليس كذلك؟

انطلق الصوت بذات النبرة ونفاد الصبر: «كلْ تبن أنت وإياه»

أحس سعد وكأن جاره التفت إليه وهو يقول: أرأيت؟ موجودة.

سكتا، هبّت نسمة باردة، واخضرّت المسافة بين القبرين.

رمل

« رش خفيف جلى وجه الرمل فأشرق. سمرات البر تشبهني أو أشبهها؛ من مطر لمطر لا تغادر، ولا تنحني.. أنا سعيدة يا صديقي.. الرش يغسل روحي »

رسائلها القليلة حين تأتي تجلو روحي الصدئة، أتلوها وأبتسم.. بالأمس فقط غيرت اسمها في جوالي (سميتها عشتار)

هل أجرب البر لعلي أعشقه كما يليق ببدوي؟

تذكرت مكالماتنا القليلة الباردة، وقررت أن يكون لدي ما أحكيه لها في اتصالي الآتي..

أجمع صغاري ونركب، تشجعهم نصف ابتسامة على وجهي فيغنون، ويطلع لي وجهها في المرآة بينهم، وأفكر: منذ متى توقفت عن عد الأيام وصرت أمهم وأباهم؟

على كتف الصحراء نقف، ينسلون شطر الرمل، وأحفهم بعيني..

يجوسون في المكان ويزينون وجهه العتيق بخطواتهم الحافية، ثم يعودون.

لغتي تضيق عما يناسب موقفاً استثنائياً كطلعة بر فأخفي وجهي في كيسي المتقشف.

أفرش سفرتي البلاستيكية وأفتح علبي القليلة وأوزع الخبز.

يلتهم الأولاد فطورهم وأمضغ معه توجيهاتي ورملاً تسفي به ريح فتية

إليّ.

مع قطعتي الأخيرة أتذكر أني نسيت الكرة، وأفكر كم من الأعين في أعطاف هذا الرمل ستستفهم عن «الأجنبي[1]» وأطفاله الذين لا يعرفون من البر أكثر من فضاء أوسع للأكل.

أجمع ما بقي ويتبعثر الصغار من جديد، وأتذكرها مرة أخرى (أمهم)، وأسألني: منذ متى بهتت صورتها؟ منذ متى استبدلت كرهها بحقدي لأنها خلتني معهم؟

لو كان لأفكاري صوت وسمعتني أمي لاستغفرت ثم قالت: «مقدر ومكتوب» ولربما بعد قليل - حين تتذكر كم صارت الكلمة تؤلمني - ستقترف ست أو سبع جمل قبل أن تجد موضوعاً يحمي صوتي من أن ينزلق في البؤس.

ومتقمصاً لسان أمي أصرفني لغير الراحلة، وأستحضر عشتار امرأة أشكلها كل يوم، ويلهيني جمال روحها وصوتها عن رسم تفاصيل جسدها أتمناها لو أستطيع أن أكتب لها الآن!

ماذا أقول لها؟!

الناس لا يفهمون الحقيقة حين أقدمها بلا رتوش، ولا يفهمونني فيبتعدون وأتألم.

أنادي صغاري، يلتمون وعيونهم معلقة بشفتيّ فأحكي:هي عادة قديمة لأجدادكم وسنحييها اليوم. إذا ضاقت صدور أجدادكم أتدرون ما يفعلون؟

- يغنون. قالت الوسطى

---

1 - في ديرتي كل من يساكن أهلها من خارجها فهو في أعينهم أجنبي.

ضحكت: صحيح، ولكن إذا ضاق صدر أحدهم أكثرراح للبر، يحفر حفرة صغيرة، يحكي فيها ما يوجعه ويدفنه، والآن سنفعل مثلهم.

قال أصغرهم: لا يوجد ما يضايقني؟

قلت: احفر حفرة وضع فيها أمانيك..

أردت أن أكمل: ولا تدفنها حتى لا تكون فأل سوء، لكنهم كانوا قد انتشروا.

بقيت الكبرى، قالت: سأحفر اثنتين يا أبي، واحدة لما يقهرني، والثانية لما أريده.

أومأت مباركاً وراحت.

انتحيت بكثيب قريب، أحفر ويتهايل ما حولها طامسا ما أحفر.

أقيم كفي الأيمن كتفاً أعلى للحفرة تحمي سافلها من عاليها، وحكيت: «صدري يوجعني. لا أسعدني وجودها ولا رحيلها أراحني. هم يحتاجونني وأنا تعب، يدي باردة، وقلبي.. قلبي يوجعني يا رب»

رفعت كفي فغمرت الحبات المستديرة الشفافة نصف الحفرة، طمست وجهها بكفي وحفرت أخرى أصغر.

أقبض حفنة رمل ثم أذروها. مع كل قبضة تنسرب أمنية.

صغاري الذين فرقتهم الحفر يجمعهم اللعب الآن..

أوسد رأسي الرمل وعيني على السماء، زرقتها تبهت بالاعتياد.. وأتذكر أنا أن دفن الأوجاع طقس مؤنث، وأتساءل: هل تغلغلت فيّ الأمومة إلى هذا الحد؟

نركب مغادرين وبعض الطبول تقرع قرعاً أولياً هنا وهناك، أكتب لعشتار:

« الدواسر كائنات من طرب»

حين أدير وجه السيارة أنظر للمكان، فيبدو لي تكتمه مهيباً، أوجاعنا لم تغير في سحنته شيئاً ..

أحسد الأرض، وأُنشد وصغاري يرددون.

حرمة

1

أعيننا عليه، ينمو ونحن نتواصى به على مورد الماء.

-«غداً يكتمل بدراً» تنطلق همسةً جذلى فتهتز الرؤوس موافقة، ثم نحمل ماءنا وننشد:

« تقولون ولا ما تقولـــون
لي صاحبٍ ما أجوز دونه
عسى البدو من دربه يهجـون
وحضران ورقـــا يتبعونه »

على مفرق الطريق أنفرد، أجتاز أول نخلنا، أرفع رواق الخيمة الخلفي وأدخل. أتجه لصندوقي الملون بأقصاها. أزن صرة الطحين في راحتي مبتسمة ثم أخرج.

ضحى، أمي تخض اللبن، وأنا أعجن عجيني على عجل.

قبضة الملح - التي أذروها عليه - أعود فأزيدها وهمسات الرفيقات في أذني «زيدي الملح.. يأخذك للماء»

في القايلة أقلبها؛ خبزة مستديرة الحواف ناشفة. أخفيها منتظرة وقتها.

قبل المغرب على منبت الدرب نتلاقى أنا والبنات.. ما تواصينا بالصمت

قبله لكنّا لم ننطق

يمر الرجال، وحين تغيبهم وجهاتهم نصطف، ندحرجها في ساقتهم.

تسكن خبزتي فأهرول ناحيتها، أنفض عنها التراب، ثم أمضغها. ملوحتها تكوي بطن لساني، أخفف لسعاتها برجال أصفُّهم في عين الشمس قاصدين أبي.

تمتصنا المسالك من حيث لفظتنا وفي آذاننا الهمسة الأخيرة: «لا ماء الليلة»

في مرقدي أتقلب بعينين مغمضتين، أغري بهما النوم، وعلى موردنا صباحاً نجتمع بقِربٍ سيطول عطشها. مشغولات نحن عنها بالبارحة ورؤاها.

أسأل نفسي مرة أخرى: من منهم سيكون قريني؟ فيما تقاربت الرؤوس لتسمع الحلم الأول، قالت: وجدتني على ماء آل فهاد!

نضحك، وتهمس الثانية: أما أنا فقد شربت من ماء آل مرضي ..

بعد الدهشة بلحظة نصبَّ السؤال في جوفها: يطلقك خشمان ؟! رفعت رأسها وقالت: أو يموت ..

قلت لها: آل مرضي أجاويد.

نظرتني العيون كلها مقررة أنه دوري لأحكي.

تذكرت ماءنا هذا ووقفتي عليه في الحلم، أخبرتهن فانطلقت صرخة: ما قلت لكن ؟! عيال عمها والله ما يخلونها .

أصد عن بقية الأحلام وأتذكره، وقفته كسيف، رقصته مع الرجال حول السيل متلثماً بشماغه، متحزماً. أنظر لصورتي في الماء، أراه هو أيضاً، أودعه ولو لم يعرف، أملأ قربتي.

أرفع الصوت وينشدن من خلفي:

« ليت الحبيِّب ولد خالي

ماله دنايا يحجرونـــه

وايـــاه في راشنٍ عـــالي

وأمز من صافي سنونه »

2

« آه بكيته إن شاء الله!! لا وجه ولا جاه» أرميها بينهن كأول مرة شققت الضلوع عنها، يضحكن، يقلدن صوته ومشيته ، ثم يصبرنني .. وبطرف برقعي حين أغادرهن أمسح دمعة تتناسل شمالي النخل.

أستند لآخر غرسة فيه مولية وجهي جهة الخلاء وأصرخ؛ بأعلى صوتي أصيح، وألتفت بين وقت وآخر جهة البيت خوف أن تخرج عجوزه فتسمع وتخبره ..

آخر مرة عرف أني أطلب الله ياخذه! أَشْبَع الحطب من لحمي ..

من بين النخل تنبت: «كل ما ضاقت بك افعلي مثلي ولا تشمتي فيك النسوان، احفري وادفني.. الرمل يبلع الوجع»

تروح وأبكي، وتحت نخلة أحفر أول حفرة، أنحني لأهمس، أبذر فيها قهري: يا رب خذه أو خذني.

أسوي الأرض بما نبشت من ترابها وأروح.

أدخل البيت ألمح «الميزب» المعلق على باب «روشننا» أومن أن الحفر ستكثر، وأن الوجع في أوله.

3

هو العيد، المسجل الكبير ترن فيه أصوات مطربينا، نرقص، نغني معهم، ثم نغلق باب غرفتي، نتلاصق لنفتح حكاية كل عيد: أيُّ واحدة منا ستتزوج قبل البقية؟

تتحدث كل واحدة عن ذاك الذي اسمها مقترن به، في بعض العيون شغف، وفي الألسنة خجل.

كان عيداً عادياً لولا أنها عرضت علينا فكرتها (لعبتها) قالت تعلمتها في رفحاء من العراقيات، لعبة رائعة، ونتائجها مضمونة، نستطيع أن نعرف بها إن كنا سنرتبط بهم أم.. بغيرهم.

لم تمنحنا الوقت لنقرر؛ من صدرها أخرجت ورقتها المطوية بعناية وبسطتها، بحزم لا يشبهنا كلنا. وضعت إصبعها تحت كلمة في وسط الورقة، ورددنا بصوت واحد: «حزوفك»

قالت ناقلة إصبعها ببطء من حرف لآخر: الحاء رمز الحب، والزاي رمز الزواج، والواو رمز الوفاء، والفاء رمز الفراق، والكاف رمز الكره.

كل واحدة تكتب اسمها واسمه، وتحذف الحروف المشتركة، ثم تحصي عدد الحروف الباقية، وتمرر العدد على حروف «حزوفك» لترى عند أي حرف (عند أي معنى) ستتوقف بها اللعبة.

نتضاحك، نتسابق لدفاتري، ننزع من صفحاتها ما يكفينا.

الضحكات تقطّعها الأنفاس المتسارعة. من على يميني تصيح: زواج؟ الله!

همست الأخرى: كره؟! كره؟! لماذا ؟ كيف؟! أكرهه أم يكرهني؟! مستحيل!! من يكره من؟!

تنظر لي مقترحة اللعبة، وتبتسم لأتشجع، وحين لا أفعل، تدس رأسها في حجري، تقرأ الورقة التي ترتعش في يدي من ثقل حرف الفاء.

أسترجع سؤالها هي على الهاتف قبل أيام، وهي تستحلفني: على طول هذه السنين ما سمعتِ منه كلمة أحبك؟

وأحلف: والله ما قالها.

تكذبني، وأحلف، وأشرح: كلما التقينا صدفة.. في كل جلسة للعائلة.. كلما سقطت عيني في عينه أو خاطب لساني لسانه أحسستها دون أن ينطقها.

أبلع عبرتي، وببطء ألتفت للمسجل، أرفع صوته. يعاودن الرقص، وأدس الورقة.

٢٠٠٥م

دم

بمنجله الحاد يسوي ما تشعث من رؤوس الحشائش الزرقاء الصغيرة فوق القبور، لباسه الرمادي مسبل على جسده اليابس، حتى أطراف وجهه يخفيها..

التقطت أذنه ذبذبة غريبة على سكون المكان، لم يميزها أول مرة، لكن في المرة الثانية خالها صرخة مكتومة، وفي الثالثة تأكد أنها مشروع ضحكة فانتفض.

نظرته العابسة جالت بين القبور، هي أكثر من أن يحيط بها بصر (وإن كان بصره هو)

العناية الفائقة في ترتيب القبور أعادت له ثقته بذاته، حتى كاد لشدة زهوه ينسى التهديد الجديد.

عاود النظر للمكان بتفحص، فكر بأن يزمجر طالباً من الصوت المتخفي إظهار نفسه، ثم - مقدراً أن ذلك قد يجعل الثاوين في الأجداث ينهضون - تراجع.

توقف لحظة مستغرباً خاطره الذي يمر بباله لأول مرة، تساءل إن كان ذلك خاطراً مخيفاً.

لكنه سرعان ما وصل لقناعته القديمة؛ رعاياي أنا الأدرى بهم (لا شيء سينهضهم) قالها وعاد لجز الحشائش بهمة أججها إحساسه المتعاظم بسطوته. تلاشى الصوت، حتى كأنه ما كان.

شمس ذاوية تتشبث بسقف المكان وتحاول قدر ما تستطيع إنارته. وقبل أن يبلغ الجهة الغربية من المقبرة كانت هي تنزلق في الاتجاه ذاته.

نشاطه ظل في معدله المعتاد حتى والشمس تزحف لتندس وراء جدار الأفق.

أفكاره القليلة تبهت الآن، ويلهيه عنها كلها هاجس إنهاء العمل ليرتاح قبل موسم الحصاد القادم.

القبور في هذه الجهة آخر ما استجد في المقبرة، لم يكن قد مضى على تبرعم أكثرها وقت طويل، لكنه لاحظ أن الحشائش فوقها أعرض صدوراً.

فكر أنه لم يكن يوماً مرتاحاً لها، شيء ما فيها منفر، لا يستطع توصيفه.

رفع منجله عالياً، هوى به على العشب فانفلتت أنّة صغيرة، توقف، تشمم الهواء، نظر تحت رجليه، كان المنجل موشوماً بنقطة حمراء حارة، قربها من أنفه فارتعد جسده كله، فيها رائحة يعرفها.. رائحة حياة.

جحظت عيناه وهي تمسح مستطيلات الرمل النابية، كأنها تحاول خرق التراب لتبصر عدوها تحته.

فكر، لو أنه سمح بوضع شواهد للقبور الجديدة لعرف بسرعة ابن المارقة الذي تنبض أعضاؤه الآن تحت هذا الركام.

القبر تحت رجليه صغير.

- إذن فالموضوع فيه طفل.. قالها، وهمَّ بأن يستنطق المسجى وسطه.

بخفه نقر وجه الأرض، ثم تراجع مستصعبا جدال صبي.

التفت إلى يمين القبر حيث يوارى جسد الأم، قفز نحوها، نبش ترابها الأسود.. نفضها..

استغرقت وقتاً طويلاً لتفتح عينيها، ووقتاً أطول لفهم أن ما تراه ليس حلماً.

وجهها الأشد شحوباً من الأقمطة المحيطة به تلبّسه هلع أصفر، لم يكن شفيعاً مقنعاً لها عنده.

فك اللفائف حول عنقها في حين مرت ببالها كل الاحتمالات لعقاب كارثي على خطأ لا تعرفه.

لكي تهرب منها انشغلت به، للمرة الأولى تراه بهذا القرب: متهدم الوجه، عينه تحرقها، رائحته النتنة تطغى على رائحة جسدها المتحلل.

ولأن الموت أهون من انتظاره فقد تجرأت وسألته: ماذا حصل؟

لو انتبهت لعرفت أنها أنقذته بسؤالها هذا، كان شبه تائه قبله، أثارته نشوة اليقين بأنه يعرف ما يريد بالضبط فزمجر في وجهها: وأنا أجز العشب فوق قبوركم طفرت نقطة دم من فوق قبر ابنك.

- مستحيل. قالتها قبل أن تلتفت قدر ما جاد به القماط من حرية لعنقها.

تأملت رمس الصغير فعاودتها ذكرى قديمة. لما ولدته، وفي أول غفوة بعدها رأت في لفائف مولودها سراجاً منيراً، استعاذت من شر الرؤيا كما استعاذت وقتها، ودفنتها في أقصى الخاطر.

عاد ذو الوجه الصخري ينفضها: هذا ما حصل.. وأريد أن أعرف السبب في ذلك، من أين له الحياة ما دمتِ ميتة؟!

نظرت صوب قبر وليدها بنظرة لا يمكن بسهولة نسبتها إلى الشفقة أو الغيظ، ثم عادت لمستجوبها الذي كان يتشممها حالفة ألا يدَ لها في هذا.

لشدة رعبها لم تستطع بعد ما قالت أن تحول عينيها عنه، ظلت تحدق فيه

حتى دسها في حفرتها.

طمرها بالتراب على عجل، ثم ركع عند قبر الوليد.

ما إن غرس يده في التراب حتى ظهرت لفائف الصبي البيضاء، في خاطره قرر أنه سيعود لمعاقبة أمه التي لم تغرسه جيداً في أحشاء الأرض.

انتزع الجسد الندي، وبتمهلٍ فك لفائفه.

رغم أثر ضربة المنجل في صدره كانت أنفاسه ذات نغمة هادئة أشعرته بالحنق، وشوشته أيضاً.

يد السماء الجبارة اختطفت الشمس المريضة، اعتصرتها وخلَّطتها بروحها الزرقاء.

ثمة إلهام شيطاني في الصورة جعل الحارس يركض كالمسعور بين القبور

- متأكد أنها هنا.. في مكان ما.. رأيتها من قبل.

كانت بنية السحنة، طاوية الجوف، تحت الرمل دست من جسدها ما استطاعت لتحميه من الحرارة، الآن بدأت ترفع عنقها قليلاً لتتنفس، رآها، قبض عليها، نكسها، ونفضها ليخلي أمعاءها من ذرات الرمل الصغيرة فيه.

رفع القنينة، مسح التراب عن ظهرها، وعاد لقبر الصبي.

شق ساقه بمديته، وضع فمه على الشق الذي بدأ ينزف، وأخذ يمص الدم الطالع من جدول اللحم المفري.

يملأ فمه به ويمجّه في القنينة.

لما جف لحم الصغير أعاد الحارس لملمة الخرق حول الجسد الذي صار بارداً الآن، ورماه في حفرته.

تأمل القنينة بقرف تحته لذة، دسها تحت إبطه، كوم التراب في حفرته، وغادر المكان.

في الصباح التالي صارت صدور الحشائش قرب القبر المنبوش أعرض..

وفي الموسم التالي حين عاد اليابس بلباسه الرمادي المسبل حتى أطراف وجهه، وبمنجله الحاد يسوي به ما تشعث من رؤوس الحشائش الزرقاء فوق القبور كانت أربعة قبور أطفال مبعثرة الرمل خاوية، وعلى جبين الأرض بجوارها آثار أقدامٍ صغيرةٍ ذاهبة..

ثلاجة شقة مفروشة

ثلاث شقيقات وابنهن. بيتهن الذي تسلخ دهانه منذ سنين يتوسط الحي القديم.

البيت هادئ، وجدول زيارات الشقيقات صارم كفتحات ثيابهن متقشف مثل زينتهن.

أحاديثهن محسوبة وصلواتهن لا تُحصى.

طبعهن التبسم، أما الضحكات -إن انفلتت - فلها إيقاع ثابت كثلاث خطوات عجلى على سلم شديد الانحدار.

ثلاث شقيقات كثلاث بيضات منسية في ثلاجة شقة مفروشة. جينات أمهن وسمتهن بدرجة لون وتدويرة وجه واحدة.

طول العشرة بينهن تكفل بالباقي: أطولهن بدأت هشاشة العظام تنخر هيكلها، وأنحفهن انتبهت أنها لم تعد كذلك حين صار ولدهن يأخذ للخياط قطعة قماش وافية ومقاسا واحدا ليصنع منه ثلاث أردية متطابقة، وأكثرهن شعرًا لم تعد كذلك.

الأمر الوحيد الذي يفرقهن كان الرجل؛ يفرقهن في غيابه أكثر مما باعد بينهن حضوره في شبابهن الغابر.

أكبرهن تزوجت طفلة، بقيت أشهرا مع زوجها الأول وطلقها. قبل أن تعي ما حصل قرنها أبوها بثانٍ، فثالث، ورابع.. كانت مسافرة قليلة الزاد تعاد للمحطة كلما خرجت منها، واستمر ذلك حتى مات الأب.

الوسطى تزوجت في الوقت الذي بدأت تصاحب مرآتها وتضيّق الفساتين التي تفصلها أمها واسعة.

كان زواجا فاشلا، سمع العروسان خشخشة ورقة الطلاق في ليلتهما الأولى. ورغم كونه محتوما فقد خشي البائسان اتخاذه.

لن أسمي من اتخذ القرار فلا أفضلية في خطوة تأخرت سبع سنين.

أصغرهن لم يمسسها رجل. حين بلغت الأربعين بدا غياب بصمته جليا في مشيتها، رائحة جسمها التي غدت تشبه الأرز المنقوع وصوتها منزوع الصدى.

تزن نفسها فتجدها أقل من كل النساء وعطف أختيها يذكرها كلما تناست.

حين تلاشت أشباح الرجال من ألسنتهن تواترت رحلات القرب من الله.

كل عام مع هلال رمضان يجمعن حاجات قليلة والكثير من التمر والقهوة ويغادرن البيت والحي والبلدة.

يذهبن لمكة، ويقمن في أقرب شقة ممكنة من بيت الله.

غدت المدينة المقدسة الحدث الوحيد في بيت النساء الثلاث. حتى أحداث بلدتهن القليلة يربطنها بالكعبة: «كان هذا قبل أيام من عمرتنا التي نزلنا فيها شقة في العزيزة.. حصل ذلك بعد شهر من عودتنا من شقة أجياد»

هذا العام تزوج ولدهن وغادر البيت.

٧ أبريل ٢٠١٨

الفهرس

مكتبة
t.me/soramnqraa

تسعة أسباب لفشل مشروع أم فهد ٥
بنت ٨
مهمة رسمية ١٠
غبار وردي ١٥
إعدام ٢٠
الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور ٣٢
مأزق وِجْنَة الانتخابي ٣٧
خمس روايات لما وقع ليلة الثامن من رمضان ٤٢
قرية القصر ٥٢
الأطرم ٥٩
سعد ٦٨
رمل ٧٥
حرمة ٧٩
دم ٨٤
ثلاجة شقة مفروشة ٨٩

أمل الفاران

الفتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور

من خـــلال ثمانية عشر قصة تترك أمل الفاران بين أيدينا عمـلا متكاملاً من حيـث الفن والأسلوب، عـبر التصوير المتـقن والايحاء الذي يبتعد عن الالتبـاس في المواضيـع الـتي عالجتهـا من خـلال قصـص هذا الكتاب، وهـي بهذا تقـترب من صـنع منحوتـات عالية الدقة، تصل بالقارئ إلى الهدف المؤكد والمقصود من النص الذي حتماً يلامس عتبات الأدب الفريد. الفـتاة التي لم تعد تكبر في ألبوم الصور، هو ذلك الكتـاب الذي يغـوص في قلـــب المجتمع آخذاً من كل طـيف حالة، ومن كل زاويـة عدة أمتـار، من كل نفق بصيصَ ضوء، ومن كل صمت حنجرة قادرة على الكلام.

telegram @soramnqraa

786030 301263

أثر

رفعة العجمي
تصميم
RMJMI